جدل الهوية في الحضارة الغربية (البنية و حدود القدرة)

Defending identity in Western civilization

(infrastructure and borrowing limits)

د . السعيدي أمبارك عبدالكريم. أستاذ مساعد بقسم الفلسفة. كلية الآداب. جامعة بنغازي.

Dr: Saeidy . A. Abdolkarm. Assistant Professor, Department of Philosophy. college of Literature. Benghazi University.

Emil: Saeidy.abdolkarm@uob.edu.ly

تاريخ تسليم البحث	تاريخ قبول البحث	تاريخ نشر البحث
2021 / 8 / 29	2021 / 10 / 2	2021 / 11 / 7

الملخص: يتناول البحث الحضارة الغربية بنيتها و حدود قدرتها على التعبير عن هويتها، و مدى تتطابق هذا التعبير مع بنيتها، و تأثيره على التفاعل بين المنضوين تحت مظلتها من جهة و الحضارات الأخرى من جهة أخرى. و ذلك من خلال منهجٍ تحليلي نقدي مقارن ، تاريخي عند الضرورة لاسترداد بعض الشواهد التاريخية ذات العلاقة بموضوع البحث.

و يهدف البحث لتشخيص هذه الحضارة لمعرفة مواطن القوة و الضعف بها و إمكان الاستفادة منها، كونها تمثل إحدى الفضاءات الحضارية التي تثير جدل حول حدود فاعليتها في عصرنا الحالي .

يخلص البحث إلى نتيجةٍ مفادها إن مفهوم الغرب غير متجانس و طبيعة الهوية الحضارية و أسس بنائها ، لاحتوائه على مكونات ثقافية متعددة و تذبذب الخريطة الثقافية بين انضمام و خروج المجتمعات منه. فهو ائتلاف مصلحي أكثر من كونه تعبير عن الهوية الحضارية واحدة .

الكلمات الداله: الحضارة الغربية ـ المنهج تحليلي نقدي ـ البنية و حدود القدرة .

Abstract: The Western civilization deals with its structure and limits of their ability to express their identity, and how this expression is concentrated with its structure and its impact on the interaction between the two under the larger and other civilizations on the other.

Through a comparative approval approach, historical if necessary to recover some historical reality of the research subject The research aims to diagnose this civilization to seek and vulnerably and strengthened, including being a cultural space that is raised over the limits of its effectiveness in our current time. The research concludes that the concept of the West is not homogenous and the nature of the civilized identity and founding its construction , to contain multiple cultural components and the scarcity of the culture of the conviction of the accession and exit of societies. It is an optional coalition than being a term of cultural auditing one.

Keywords: Western civilization - Cash analyzing - infrastructure and base limits .

المقدمة: يتناول البحث الحضارة الغربية من حيث بنية النسق الحضاري الذي مرت به، من خلال تشخيص واقعها البنيوي و حدود قدرتها الإبداعية التي توفر لها القدرة على الاستمرار على الوجود كحضارة لها قيمة بين الحضارات. و يستدعي تحديد عدد من الأسس التي يفترض أن تكون أداة قياس كي يتسنى لنا تحديد هويتها، و بمعنى أخر الإجابة على تساؤل : إلى حد يمكن تطابق الهوية الحضارية للغرب و محددات مفهوم الحضارة؟. و ما الطور الذي وصلت إليه من صيرورة الحضارة ؟. و ما حدود القدرة على الاستمرار في التقدم الحضاري بثنائيته الروحية و المادية؟ . من خلال هذه التساؤلات يهدف البحث لتشخيص هذه الحضارة و تحديد مواطن القوة و الضعف فيها مما يتح الاستفادة منها كتجربة مرت بها إحدى الجماعات البشرية و عبرت من خلالها عن ذاتها.

يستند البحث على فرضيات عدة :

ان الحضارة الغربية مُتأرجحة من حدود الهوية بين القومي و الإمبراطوري و لم تستقر حتى الآن على نسق لهوية موحدة

وجود خلل بنيوي في التراث الحضاري الغربي .
أن الغرب كهوية ثقافية حضارية مفهوم افتراضي أكثر منه واقعي .
أن النزعة التسلطية جزءٌ من بنية الحضارة الغربية و لها جذور تاريخية و لها إطار فلسفي حربي في الوسط الغربي
المنهج المتبع : تحليلي نقدي مقارن و تاريخي عند الضرورة

المباحث التي يتناولها البحث هي على النحو التالي :

محددات الهوية الحضارية. و يتناول مفهوم الحضارة و حدود الهوية الحضارية.
محددات الهوية الحضارية للغرب. و يتناول مفهوم الحضارة و تعدد التسميات و علاقته بصراع الهوية في الغرب، و دور الفكر الفلسفي في جدل الهوية الحضارية للغرب .
حدود الهوية الحضارية لمفهوم الغرب و حالة الانفصام في الهوية و أثرها في مواجهة الأزمات
طبيعة الفضاء الحضاري للغرب.
الخاتمة .

محددات الهوية الحضارية :

مفهوم الحضارة :

يُعتبر مفهوم الحضارة مُحدِداً لماهية الحضارات و مُحدداً لموقعها بين الحضارات . كما أن تسمية الحضارات بمسمى بعينه يرتبط بالجوهر الأساسي لماهية تلك الحضارة، أحياناً بمعتقدها الديني بوصفه علامة فارقه تميزها عن غيرها ، مثل الحضارة الإسلامية أو الحضارة المسيحية، و أحياناً بثقافتها المتمثلة في اللغة مثل اللغة العربية مثل الحضارة العربية، أو الجغرافيا مثل الحضارة الأوربية كونها قارة تحتل موقعاً جغرافياً، و في حالة الحضارة الأوروبية كثيراً ما توصف بالمسيحية و الغربية، و وفقاً لمحددات محتوى التقدم والانهيار الحضاري فإن الحضارة الغربية في وضع مُتباين بين من يراها في حالة تقدم و بين من يرى فيها حالة انهيار حضاري . و قبل تناول هذه الحكمين بالتحليل لابدَ من تحديد مفهوماً عاماً للحضارة ليكون قاعدة يمكن الاعتماد عليها في التحقق من أيهما أقرب إلى الصواب . الحضارة بمكونتها و طبيعتها ثنائية الطبيعة ، إذ أنها تجمع بين التكوين الروحي (المعنوي) و بين التكوين المادي ، حيث نجد فيها الجانب الثقافي من دين و لغة و فن و عادات و تاريخ ، و بمعنى آخر كل ما تحمله النفس البشرية داخلها ، في حين أن التكوين المادي مرتبط بالواقع الحياتي خارج النفس أو ما تبدعه النفس من أشكال مادية كالمعمار و نحت الآثار التي تخلفها ، بالإضافة الجغرافيا من حيث موقعها و حساسية ذلك الموقع في تعاملها مع باقي الحضارات تأثره البيئي على الإنسان ، من حيث كونه عاملاً محفزاً أم معيقاً لتفاعل الإنسان الحضاري (توينبي:1960، 317) . فالحضارة ليست هبة إلهية بل هي جهد إنساني و نتاج التعامل مع الذات أولاً ثم مع المحيط ثانياً . مع الذات من خلال تنمية القدرات المجتمع و تنظيمه وفق قيمٌ و ثقافةٌ تميز و تعبر بها حضارياً عن ذاتها ، و مع المحيط بوصفه آخر فرضت عليها ضرورة الوجود التعامل معه كحضارة مغايره ، أو طبيعة يسعى لتسخيرها لمصلحته . من هنا يبرز السؤال عن محددات هذا التعامل المنهجي بالركون إلى أسس تُعَدُّ ركائز لبناء الحضارة ، بحيث يمكن الحكم بتقدم أو انهيار الحضارة ؟ على سبيل المثال بين اكتشاف نوبل للبارود كأدت للقتال ، و وضع جائزته للسلام فارق كبير حسب التقييم الأخلاقي الإنساني للحضارة . فإذا كانت الحضارة ((هي ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض مادياً و معنوياً ، و إذا مقياس الحضارة هو مدى ذلك التحسن مادياً و معنويا و من الواضح أن التحسن المعنوي مقدم على التحسن المادي ، لأن الغاية القصوى هي شعور الإنسان بأمان و الاطمئنان و الكفاية و قيام مجتمعه على التعاون و المحبة . بدل من قيامه على التحايل و الأنانية و القانون الذي تنفذه قوة غالبة)) (مؤنس:1978 ، 48). فالأمان و الطمأنينة و الكفاية يمكن جمعها تحت مظلة الاستقرار الذي هو غاية الحضارة و أمل الجماعات الإنسانية في صراعها البيني الداخلي لترويض الذات الاجتماعية على تبني ثقافة ورؤى موحدة تحفظها من التشظي والتمزق و في صراعها مع الآخرين لأجل البقاء في أضعف الحالات أو من أجل التقدم عليه حضارياً . قد تزدهر الحضارة ((فتبلغ أوج التقدم و الرفاهة الاقتصادي إنما ترتفع بعد أن تنمي في نفسها صفات خاصة بينما الأمم الأخرى التي زحزحت عن مجال الوجود المؤثر إنما أصابت هذا الحظ لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها و قوى الحياة فيها ، إن الذي ينظر نظرة سطحية إلى هذا الانهيار يرى أنه ينتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . و الحقيقة أن التدهور نتيجة فساد بطئ أو انحطاط لا يشعر بهما المرء و هما فساد و انحطاط يتجليان في كل جوانب حياة الأمة)) (صدقي: ب ت ، 37) . إذا كان الرأيان السابقان يقدمان التحسن المعنوي على المادي يبدو مقبولاً نسبياً إلا أنه لا يحظى بالكفاية من حيث الوجهة ، فالحضارة و لم يصنعها الإنسان ترفاً بل تلبية لحاجاته وفقاً لطبيعته الثنائية . و لكونه ليس روحاً ملائكية و ليس جسماً غرائزيا . و بمعنى آخر ليس آحادي التكوين ، لذلك فإن لكل طبيعة حاجاتها . فهي إذاً عمليةٌ جدليةٌ مركبةٌ تتطلب نوعاً من الوعي لتحقيق التوازن بين الجانبين ، و إن كانت

منظومة القيم بطابعها الروحي تُعَدُّ هي محرك الدافع نحو التقدم و الانهيار كونها تحدد معيار المباح و المحظور . إلا أن تقدم الجوانب المادية من علوم أو تقنية مالم يرافقه تقدم في الأفق الروحي قد يدفع بالحضارة إلى الانهيار. و كذلك الحال بالنسبة للجانب الروحي مالم يدفع القوى الفكرية والإمكانيات الطبيعية و توظيفها لتحقيق ابتكارات مادية لخدمة الإنسان يعد إخفاق حضاري (توينبي : 1960 ، 314) . فالحضارة بثنائيتها البشرية فهي جدلية الطابع في الصراع مع الحضارات الأحرى ، فالأمم تُنافس و تُصارع من أجل الحفاظ على ذاتها و التفوق على الأمم الأخرى في آنٍ واحد ، من خلال صيرورة لا تعرف الداعة و السكون . فالصراع بين الأمم و حضارات ليس سياسياً أو عسكرياً فحسب بل يأخذ طابعاً ثقافياً قد لا يبدو للبعض ظاهراً أحياناً ، نتيجة الانبهار بحضارة ما و استخدام منتجاتها الفكرية ، و هو ما يُعرف بالغزو الثقافي الذي يؤثر على هوية الحضارة و قد يؤدي إلى صراع داخل الحضارة ذاتها ، فالمجتمعات بقدر الانفتاح الذي فرضته طبيعة الحاجات المتجددة والتقدم في وسائل التواصل ، إلا أنها تبقى مُتحفظة - بقدر قوة حضارتها - على ما يطرح أمامها من منتجات حضارية ، أيا كان نوعها ، سياسية ، و اقتصادية أو تربوية اجتماعية أو تكنولوجية تتطلب تقيماً من خلال القيم أو تعديل و تكييف في أوجه استخدامها و مشروعية ذلك الاستخدام وفق الإطار الثقافي للهوية الحضارية . فليس ثمة حضارة مكتفية بذاتها مثلما لا وجود للإنسان فرد مكتف بذاته ، و لكن هذا التبادل أو التلاقح بين الحضارات بقدر ما يُفيد تلك الأمم فان الحضارات لكل منها طبيعةٍ ذات حدودٍ ثقافية و جغرافية وعرقية متفردة بها عن غيرها ، و هذا يضعنا أمام تساؤل حول ماهية الحضارة : هل ثمة حضارة جامعة للإنسانية قاطبة ؟ أم أننا أمام حضارات لكل منها طبيعة متفرد بها عن غيرها ؟

الحضارات و حدود الهوية :

تاريخاً لم يخضع العالم الإنساني تحت مظلة حضارة واحدة سواءً أن كان ذلك وفق صيغة ثقافية ، أو بقوة الغلبة العسكرية فقد تتحالف أمم متقاربة ثقافياً لمواجهة خطر داهم ، أو تجمع بينها مصالح حيث تلتف مجموع الأمم حول أمة تُعد الأقوى مع وجود ربطة دينية أو جغرافية في صراعها مع حضارات أخر تمثل خطر عليها ، أو تسعى للسيطرة عليها أو على ثرواتها . فلقد شهد العالم الكثير من هذه الصراعات والحروب . مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والحروب التي يشهدها العالم الآن ، هذا من الناحية التاريخية ، أما الناحية الفلسفية والفكرية تتباين الآراء بين الخصوصية لكل حضارة و بين عالمية الحضارة التي تدعي الطابع الإنساني المشترك هو المحدد لهذه الطبيعة العالمية للحضارة . فأنصار نظرية التقدم يرون أن الحضارة إنسانية عالمية الطابع يسود فيها العقل والعلم (راجع. صبحي : 1989 ، 184 - 185) . أن هذه الفكر متأثرة بعصر النهضة وما حدث فيه من تقدم علمي و محاولة تحييد القيم من مجال دراسة الإنسان لأنها لا تخضع لمنهج العلوم الطبيعية ، وبالتالي فإن مفهوم العقل الذي استخدام كمحدد من محددات الهوية في الحضارة اقرب لمفهوم الشيئية (المادية) منه لمفهوم الإنسان بطبيعته الثنائية المتمثلة في الروح بما تحمله من بنية فكرية ثقافية متباينة حسب المجتمعات الحضارية . و يرى " هيجل " بان الحضارة هي تعبير الروح عن رحلة وعيها العالمي من أجل تحقيق حريتها . بينما يرى " ماركس " بأنها تعبير عن الصراع الطبقي الذي يصل في نهايته إلى الشيوعية الواعية . ففي المعنى الفلسفي المذهبي ((اتخذ مفهوم التقدم طابع نظرية شاملة في فلسفة التاريخ فهو تقدم نحو حرية الروح بوعيها لذاتها لدى هيجل ونحو المجتمع اللاطبقي لدى ماركس)) (صبحي: 1989 ،72) . ولعل أخرها مشروع العولمة الذي اصطدم بالحمائية التي وضعتها الدول التي صاغت ذلك الطرح فلقد راء المفكر الفرنسي " سيرج لاتوش " في كتابه تغريب العالم أن العولمة خطر على الهويات الثقافية للحضارات وتمثل تغريباً للإنسان عن محيطِه الثقافي . فالثقافة من أهم محددات الهوية الحضارية ، حيث يصفها بقوله ((أنها الاستجابة التي أسهمت بها الجماعات البشرية إزاء مشكلات وجودها الاجتماعي ..... وصفها مجموع التصورات والرموز التي تمنح الإنسان بواسطتها معنى الحياة ، للتجارب العينية)) (لاتوش:1992 ، 44 - 45) . و فقدان معنى الحياة هو الاغتراب والوهن الذي يصيب المحددات الثقافية للهوية . و بالتالي يمكن اعتبار غلبت المادية على القيم الثقافية بما فيها من قيم أخلاقية ودينية واجتماعية تراثية خاصة تعني انهيار الحضارة كما يرى " شبنغلر " في حديثه عن المدنية (راجع شبنغلر : 1964، 312 - 313) .

فمن من تلك الإجراءات الحمائية السعي للحد من الهجرة لحماية الهويات الحضارية. و كذلك رفعت بعض الدول قيمة الحماية الجمركية على بعض الشركات والدول ، مثال على ذلك الإجراءات الأمريكية على الصين. فهذا الطرح إمكانية نجاحه ضئيلة أن لم تكن معدومة، ذلك لأن الأمم لا تقبل بذوبان هويتها إلا إذا كانت مرغمة على ذلك بسبب ضعفها، بل تسعى لأن تكون تبعية الأمم لها وليست تابعه . وهذا ما يعني العودة لحالة الصراع بين الحضارة التي أشار إليها العديد من الفلاسفة منهم " توينبي" ، ولعل أخرها طرح " هنتنغتون " في كتابه صدام الحضارات. فالعولمة أراد منها منظروها أن تكون من خلالها سيطرة الأقوى و خصوصاً اقتصادياً وعسكرياً ليدور باقي العالم في فلك ثقافته المادية . ولذلك عندما ردَّ "هارالد موللر" على "هنتنغتون" رافضاً لفكر صدام الحضارات ومؤيداً للعولمة قال ((في السنوات الأخيرة بدأت القيم الغربية تنتشر في كلتا القارتين، وفيما يتعلق بإفريقيا

فإن من الصعب التغلب على هذا الانقلاب بسبب النقص الشديد في تطورها)) (موللر : 2005، 165) . فالعولمة بهذه الصورة تبدو نسخة متحورة لنظرية التقدم حيث الاعتماد على القوة العلمية والاقتصادية والطموح المتجه نحو السيطرة على بقي الحضارات التي يعتبرها الغرب على أنها الأضعف سواء كان ذلك بدعوى نشر الحضارة أو بالقوة العسكرية ، مثلما حدث في بداية القرن الماضي ، فهو يرى فيها مخزن من الموارد التي تمثل مواد خام لاقتصاديات الصناعية ويرى فيه سوق استهلاكية لسلعه . لدى ينبغي طمس القيم الثقافية تمثل حاجزاً أمام تغلغله في المجتمعات الحضارية الأخرى ، ((فيما يراه الغرب عالمياً أو كونياً ، يراه غير الغربيين غربياً و ما يرحب به الغربيون كتكامل كونياً حميد مثل انتشار الأعلام على مستوى العالم ، يستنكره غير الغربيين كاستعمار غربي شائن . وبقدر ما يرى الغربيين وحدة واحدة ، يرونه خطراً)) (هنتنغتون : 2005، 109) . و لذلك يمارس الغرب نوعاً من الضغط العسكري والاقتصاد للتأثير في هذه الحضارات . يقول " فوكوياما " ((فمن المفارقات أن يكون استمرار الحروب و التنافس العسكري بين الأمم من العوامل الكبرى لتوحيد الأمم . فمع أن الحروب تؤدي إلى الدمار ، فهي تجبر الدول على قبول الحضارة التكنولوجية الحديثة والهياكل الاجتماعية التي تدعمها . والعلوم الطبيعية الحديثة فرضت نفسها على الإنسان ، سواء كان مبالياً أم لا . وما من خيار أمام معظم الأمم غير قبول العقلانية التكنولوجية للحداثة ، إن شاءت الحفاظ على سيادتها القومية)) (فوكوياما :1993، 80 - 81) . فهو يهدف إلى استبعاد القوة الغضبية (الثيموس) و التركيز على القوتين الشهوانية والعالقة في الإنسان كي لا يكون هناك أي ردّ فعل لدى المجتمعات ، فالقوتين الأخيرتين بدون الغضبية تقود إلى حب الحياة و التمسك بها . فالشهوة تعبر عن رغباتها و العقل يبحث عن السبل لتحقيق تلك الرغبات . في حين أن القوة الغضبية هي الهيبة و الشجاعة التي تجعل الإنسان مقبل على الموت في سبيل نيل التقدير و الاحترام و تحقيق الاعتزاز بالذات . (راجع. فوكوياما : 1993، 12 - 13) . وهذا الأمر مرتبط بالقيم الثقافية للحضارة التي يصعب طمسها حتى و إن قَبِلتْ تلك الحضارات الضعيفة استخدام بعض أدوات الحضارة القوية بما فيها من نظام اقتصادي و تكنولوجي ، فهي غالباً ما تُعِيد تكييف هذه الأدوات وفقاً لقيمها الثقافية الدينية و الأخلاقية و إلا ستدخل في حالة من الصراع الداخلي بين القيم الأصلية و القيم الدخيلة . فالعولمة تقوم على استخدام الحضارة القوية مادياً (اقتصادياً عسكرياً) لقيمها القائمة على حرية السوق للسيطرة على باقي الحضارات. و انصار فكرة التقدم و "هيجل" و " ماركس " ونظرية العولمة اتفقت على عالمية الحضارات و أنها مسار لحضارة عالمية جامعة للإنسانية قاطبة . ألا أنها اختلفت على الأساس القائمة عليه . ف "هيجل" يقيم فكرته على أساس روحي ، بينما الآخرين تقوم فكرتهم على أساس مادي (الاقتصاد والتكنولوجية) و إن اختلفوا في الغاية . حيث الرأسمالية تهدف إلى ترسيخ النظام الطبقي بينما الماركسية تهدف إلى تجاوزه وصولا الى الشيوعية . و بالتالي فإن السؤال لماذا تعد الثقافة محدد لماهية الحضارة ؟ سؤال مشروعاً . وهذا يقضى بالضرورة الاعتراف بوجود ثقافات و حضارات متعددة التوجهات والآفاق . لأن الأشياء والأفكار غالباً ما تكون تسميات قائمة على الدلالات المميز لها عن غيرها . و هذا يعني ضرورة الحديث عن التصور الذي يؤكد على وجود حضارات متعدد بصرف النظر - مبدئيا - عما إذا كانت متصارعة أم متعايشة أم متنافسة حسب درجة الارتباط المصلحي و المصيري . فعندما يتحدث " فوكوياما " عن القومية في أوروبا لا يرى مانع من وجودها كهوية ثقافية ، و لكن يمانع وجودها كقوة سياسية حيث يقول ((لو قُدِّر للقومية أن تنحسر كقوة سياسية ، فالواجب أن تضحى متسامحة شأن الدين من قبل بوسع الجماعات القومية أن تحتفظ بلغاتها المستقلة و بإحساسها بهويتها ، غير أن التعبير عن تلك الهوية ينبغي أن يكون بصفة أساسية في ميدان الثقافة لا السياسة ..... و رغم أن القومية في المجتمعات الأوروبية المعاصرة لا تزال قوية ، فهي شديدة الاختلاف في طباعها عن القومية في القرن الماضي ، حين كان مفهوم الشعوب ، و الهويات القومية جديد نسبياً)) (فوكوياما : 1993، 238). فهو يعول بذلك على الطابع المصلحي ، أو على الخوف على المصير المشترك . ولذلك لا يعترض على وجود الهوية القومية و لكن يبعدها عن الإطار السياسي في أوروبا من أجل التوحد الأوروبي ونبذ الصراع . يرى " شبنغلر " أن الحضارة ناتج الروح بما تحمله من قيم ثقافية جامعة لا فرداها وطموح تسعى إلى تحقيقه تعبيراً عن وجودها مدفوعة بما أسماه الجزع أو الخوف على المصير (راجع. شبنغلر:1964، 170 - 171). و يرى أن الثقافة من إبداعات الروح و لكل حضارة ثقافتها الخاصة التي تميزه، و لا يمكن استيرادها ولا نقلها إلى مجتمعات أخر، لأن بلوغ كنهها أمر مستحيل، فكل ما يمكن نقله هو منتجاتها المادية (راجع . شبنغلر: 1964، 306). يتفق " توينبي"مع" شبنغلر" على أن لكل حضارة خصوصيتها التي تميزها عن غيرها من الحضارات. و الحضارة بمحتواها الروحي والثقافي لا يمكن استيرادها من الحضارات الأخرى . فمحاولة تقليد الحضارات لن تعطي سوى صورة مشوهة لا تجدي نفعاً وهو ما يسمى بحالة المسيرة التي تلجأ إليها بعض المجتمعات عند انهيار حضارتها أحياناً (راجع توينبي ج3: 1960، 135) و يذهب إلي أن الأديان بوصفها ركن هاماً من محددات الهوية الحضارية للمجتمعات. على الرغم من أنها عالمية وليست خاصة بمجتمع بعينه إلا أنها عندما تنتقل إلى مجتمع أخر لتكون مكوناً ثقافياً له فإنها تصبغ بثقافة الحضارة التي دخلت عليها، فالبوذية في الهند ليست بصورتها في الصين، و المسيحية في الغرب ليست بصورتها في المشرق ويرجع ذلك إلى أن ما يهب الأديان طابعاً حضارياً و ثقافياً وجود مجتمعاً متبنى لها كنهج حضاري (بن نبي: 1986، 71). كما

أنه ميز بين الحضارات على أساس تنوعها الثقافي الديني والعرقي. واستعرض في دراسته للحضارات حالات عديدة من الصراع بين الحضارات. ولذلك كان حديث " هنتنغتون " عن صراع أو صدام الحضارات ليس بجديد بقدر ما هو تشخيص للحالة العالمية المعاصرة . فتناوله للدين و اللغة بوصفها أهم محددات اللهوية الحضارية (راجع هنتنغتون : 2005، 98) . و كذلك الجغرافيا والمصالح الاقتصادية ، هو بمثابة تأكيد لتلك المحددات و توظيفاً لها في تحليل نسق الحضارات في العالم ، و تعبير عن أن الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ابتعدت عن مشروع العولمة في مواجهة قوى إقليمية يرى فيها خطر داهماً قد ينال منها . و من هذه القوى الصين بما تملكه من ثقافة خاصة و قوة بشرية وعلمية و اقتصادية و عسكرية . و يرى أن الحضارات ((هي كيانات ثقافية سوف يكون لها أهمية متزايدة باطراد في النزاعات الراهنة و المقبلة ؛ فالحضارة هي : أرقى تجمع ثقافي لشعب ما ، و أوسع مستوى للهوية الثقافية ، و التي يتميز بها البشر و تمايزهم عن غيرهم من الأنواع ، يتحدد معناها على أساس كل من عناصر موضوعية مثل اللغة و التاريخ و الدين و الأعراف و المؤسسات على أساس التعريف الذاتي بالنفس)) (باترسون:2001، 9) . و هو بهذا الوصف التعريفي يضع محددات للهوية الحضارية وحدودها . غير أن هذا التعريف يبدو مختصراً بعض الشيء إذا ما قُرِنَ بتعريف " شبنغلر" الذي يصف الحضارة بقوله ((هي فكرة الوجود Inxistenc وهي بمثابة الجسد لهذه الفكرة جسد كل ما هو منظور و محسوس و مدرك من تعابيرها . كالأعمال ، والآراء ، الدين ، و الدولة ، و العلوم ، و الشعوب ، و المدن ، و الاقتصاد ، و الأحول الاجتماعية ، و المناطق والعادات و التقاليد و الطبائع و خطوط الوجه ، والأزياء)) (شبنغلر: 1964، 126) . فمن خلال التوصيف الذي يتخذه كلاهما تتضح محددات الهوية الحضارية والغاية من الحضارة المتمثلة في إثبات الوجود المتمثلة في فكرة " شبنغلر" و التعريف الذاتي بالنفس عند " هنتنغتون " . فكليهما يجيب على السؤال لدى الإنسان من أنا ؟ أو من هذه الذات حضارية المواجهة لي ؟ . إذا كنا أمام حضارات متباينة الهوية ، قائمة على فعل إنساني ، فإن ذلك يعني أنها متفاوتة المستوى من حيث التقدم بتفاوت القدرة الإنسانية على الفعل ، و استمراريتها في الوجود متوقفة على القدرة التي يمتلكها المنتمين لتلك الحضارة على الإبداع و الترابط بين الأفراد . ف " ابن خلدون " يرى في الإفراط في الترف سبب من أسباب انهيار الحضارات حيث يقول ((أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد ..... أن الأخلاق الحاصلة من الحضارة و الترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه و دفع مضاره و استقامة خلقه للسعي في ذلك ، و الحضريُّ لا يقدر على مباشرته حاجاته إما عجزاً لما حصل عليه من الوادعة أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم و الترف وكلا الأمرين دميمين)) (إبن خلدون: 1988، 374) . و " "شبنغلر" يرى أن الحضارة عندما تستنفد طاقاتها الروحية وتركن إلى المدنية فإن مآلها إلى الانهيار (راجع شبنغلر :1964، 307)و كذلك " توينبي " يرى أن انعدام التوازن بين الجانب الروحي و المادي يكون سبب في انهيار الحضارة ، و أن المدنية هي شكل من أشكال انهيار الحضارات . غير أنه يذهب إلى مكان عودة الحضارة إلى إثبات ذاتها و الانبعاث من جديد إذا ما بحثت عن مواطن الخلل بداخلها و ابتكرت حول جديدة لها (راجع توينبي ج3، 434 - 436) . و من محددات قوة الحضارة ذلك الموقع الذي تحتله في النسق الحضاري . إذ أن الحضارات ديناميكية وجدلية من حيث النسق ، وتتبدل أحوالها من حيث الموقع بين الحضارات من ازدهار و إبداع إلى انهيار و تحجر . ف ((أحوال العالم والأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على و ثيرة واحدة و منهاج مستقرة ، إنما هي الاختلاف على الأزمنة وانتقال من حال إلى حال)) (ابن خلدون: 1988، 18) . و هذا الأمر مرتبط بمحدودية القدرة الإبداعية عند الإنسان والقدرة على تحدي الصعاب كما يؤكد " شبنغلر" على أن انهيار الحضارة مرجعة إلى نفاد القدرات و العجز عن الإتيان بجديد لأن تلك الروح استنفدت ما لديها قدرة على الابداع و ركنت إلى المدنية التي يرى فيها انهيار للحضارة ، ومن هنا يتبين أن الثقافة من أهم مقومات الحضارة و استمراريتها ، في حين أن المدنية بمغريتها يمكن تكون معول لهدم الحضارة بإفلاسها الأخلاقي و الانجرار نحو العنف و الحرب المدمر لإثبات الذات ((و إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه و دينه فقد فسدت إنسانيته و صار مسخاً على الحقيقة)) (ابن خلدون: 1988، 374) .

محددات الهوية للحضارة الغربية:

مفهوم الحضارة و تعدد التسميات :

المفهوم الجغرافي القاري (الحضارة الأوروبية) : عُرِفت قارة أوروبا منذ القدم بحضاراتها مثل الإغريق و الرومان ، و لكن أوروبا لم تكن موحدة قديماً بل كانت حضاراتها تعبر عن حضارات لأعراق متصارعة . و كان من الناحية الجغرافية إمكانية أو بمعنى فلسفي وجوداً بالقوة لم يصل إلى طور الوجود المتحقق أي الوجود بالفعل ، فالترابط و انعدام الحواجز الجغرافية جعل منها قابلة لأن تشكل وحدة حضارية ، مستندة على ذلك إمكان التواصل الثقافي رغم تباين اللغات والأعراق . بيد إن هذا التباين العرقي كان سبب صراعاتها التي وصلت إلى حد الاقتتال ، و مثال على ذلك حرب المائة عام . وكأن من بين مفارقات التاريخ أن

ما قبل التوحد و من بعده لابد من تحوض الشعوب إلى صراعات دامية فلم تنخرط أوروبا في حضارة واحدة إلا في زمن الامبراطورية الرومانية ثم ما لبثت أن إنساقت الحرب من جديد.

المفهوم الديني (الحضارة المسيحية) : و هو دلالة ارتباط الحضارة بالدين ، أي أن الحضارة الأوروبية حققت وحدتها و وجودها الحضاري يوم تبنت الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية و لعل أبرز من يأخذ بهذا الرأي " توينبي " الذي يقسم الحضارات على أساس ديني ، حيث يرى أن الدين محور أساسي ترتكز عليه الحضارات بوصفه مكون روحي وثقافي يوحد أفراد المجتمع على رؤية تخلق روح التحدي فيه و تُظِهر معالم الذات الحضارية للمجتمع

المفهوم الديني الجغرافي (الغرب المسيحي) : ويجمع بين الدين والموقع الجغرافي حيث التصور الديني للكنيسة الغربية بعد انتقال المسيحية أوروبا زمن الامبراطورية الرومانية مغاير للتصورات الدينية في موطنها الأصلي المشرق العربي ، فالاختلاف على روحانية السيد المسيح كان لها أثر كبير في التصور الديني المسيحي حيث جمعت بين الروحانية والحسية في فكرة التجسيد (راجع قرم :133،2011) . و يذهب " جاك لوغوف " إلى القول ((هنا الخط الفاصل الكبير الذي أطلقته العصور الوسطى و تفاقم مند الإمبراطورية الرومانية ، و هو الخط الفاصل بين أوروبا شرقية و أوروبا غربية ، و هو خط فاصل لغوي و ديني و سياسي)) (قرم:2007، 141) . فيما يخص الدين ليس الخط الفصل دينياً بالمعنى الحرفي للكلمة ، بل اختلاف في التصور الديني (مذهبي) فالديانة المسيحية هي الغلبة على الجغرافيا الأوروبية باسرها.

المفهوم الجغرسياسي (الحضارة الغربية) : حيث يجمع بين الجغرافيا و السياسة وهو الأكثر تداولاً في عصرنا الحالي وهذا المفهوم يستثنى آسيا حاليا و قبلها الإتحاد السوفيتي قبل انهياره و يعتبر الولايات المتحدة الأمريكية و كندا جزاً منه بل أن أمريكيا تُعَد أكثر الدول تأثيراً فيه . و استبعدت روسيا منه (على الرغم من الاتصال الجغرافي و الديني و الثقافي) بعد انهيار الكنيسة الكاثوليكية و بروز التوجهات القومية في أوروبا . حيث يمكن اعتبارها أنها الابن العاق للقارة الأوروبية مذهبيا (سياسيا دينيا) ، فنتيجة للانقسامات التي شاهدتها أوروبا بعد العصور الوسطى و بروز عصور النهضة و ما تابعه من انقسام الكنيسة إلى كنائس أرثوذكسية في روسيا مغايرة للبروتستنتية السائدة في جلّ الدول الأوروبية وما تبع ذلك الانقسام من حروب كان أخرها الحرب العالمية الثانية جعلت من روسيا كيان سياسي و ثقافي خارج الفضاء الغربي .

الغرب و صراع الهوية :

المفاهيم السابقة الذكر بقدر ما تشير إلى وجود حضاري إلا أنها تُثير جدلاً حول تطابقها مع تحقيق الذات الحضارية للحضارة الأوروبية . و بمعنى أخر تدفع للتساؤل حول ما الذي يحقق الانتماء لهذه الهوية الحضارية ؟ . تتباين الآراء بهذا الصدد إلى حد يمكن وصفه بالقطيعة بين من يرى الحضارة الرومانية تعبير عن الهوية الحضارية للغرب و بين من يرى أن بانهيارها برزت الهوية الغربية و تحدد و عيها بذاتها .

الرأي الأول : انصار الرأي القائل بأن الحضارة الأوروبية حقق ذاتها في الحضارتين الإغريقية و الرومانية. يرون أنها انهيارات بعد دخول المسيحية إليها، ففي نهاية القرن الثاني شدد " سلسوس Ceisus " من هجومه على الكنيسة المسيحية في الوقت التي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في طور الانهيار . ثم تبعه " رويتليوس ناماتيوس " عام م معبرا عن كرههما للكنيسة (راجع توينبي ج3 : 1960، 141) . و يساند المؤرخ " جيبون" هذا الرأي حيث ((نصب نفسه مؤيداً لسلسوس و روتيليوس وعنده ذروة التاريخ الهليني الثقافية ـ وهي عصر الانطونيين ـ تبرز واضحة المعالم ، عبر فترة قدّرها بستة عشر قرناً ، يتداخل بعضها بالبعض الآخر . وتمثل هذه الفترة عند جيبون خوضاً ثقافياً ..... و استطاعت عقيدة الأم هذهِ تمزيق أوصال الحضارة القديمة كلها بتلقيح الشعوب الأوروبية بآراء غربية عن الحياة)) (توينبي ج3: 1960، 144). فالمجتمع الروماني و قبله اليوناني كان مجتمعاً طبقياً و تسود فيه سيطرة الدول أو الجماعة على الأفراد . و كانت سلامة الدولة أهم من سلامة الفرد ، و الحفاظ على الجماعة الغاية الأسمى لكن دخول المسيحية حسب رأي " جيبون " جعلتهم منقسمين بين منساقٍ نحو منفعته الذاتية و آخر منكفئ على ذاته باحتقاره للحياة الدنيا و الخدمة العامة متطلع بزهده نحو الآخر(راجع توينبي ج3: 1960، 144 – 145) . كما يتبنى " فريزر" هذا الرأي ، متسائلاً بقوله ((فلو فرض تحول الاهتمام البشري من المثل العليا التي تهدف إلى تحقيق الحضارات ، إلى المثل العليا التي تسعى لبلوغها الأديان العليا ، فهل يعني هذا بالضرورة أن تكابد القيم التي تظاهرها الحضارات ؟ . و إذا كان خلاص النفس البشرية هو هدف الحياة الأسمى فهل يتطلب ذلك تفويض البناء الحضاري ؟)) (توينبي ج3: 1960، 147) . ربما تكون الإجابة على تساؤل " فريزر" متاحة عند " شبنغلر" ، حيث يرى أن الحضارات قد أنهت دورتها ولكن ليس بسبب دخول المسيحية بل لأنها استنفدَّ كل إمكانية الثقافة . و بمعنى أخر حققت وجودها الذاتي ببلوغها الطابع الكلاسيكي من دين و

نمط حياة اجتماعية و فكر و فن و اقتصاد و دولة . و كان أن توجهه قدرها المحتوم بأن تبلغ شيخوختها ، و لا تبقى منها سوى أشكال ميتة من خلال المدنية اكتملت لن تعود لأن الزمن لا يعرف الارتداد (راجع شبنغلر: 1964، 217، 223، 255) . فهناك فارق بين الإبداع المرتبط بالنفس و الإلهام و بين المعروفة بالفعل المستند إلى قاعدة العلة و المعلول . فالحضارة الغربية استنفدت النفس فيها إمكاناتها وركنت إلى الربط السبب الذي تنبه النفس الحرة المبدعة . و يتضح ذلك من قوله ((أن كل شيء أصبح صيراً هو رمز وتعبير لنفس ما ، و هو لا يلقي بالقناع عن وجهه إلا أمام الشخص الوثيق المعرفة بالأشخاص ، وهو يشمئز من كبح القانون ، و يطالب به فإنما هو جواب التحسس بمغزاه ..... أن الاتجاه و التحديد و التنظيم و التعريف بواسطة العلة و المعلوم هي أمور يستطيع المرء القيام بها فيما إذا رغب في ذلك ؛ فهذه الأشياء كلها تمثل عملا . بينما أن تلك تحتل إبداعاً فللشكل و القانون ؛ و التصوير و الإدراك ، و للرمز و المعادلة أعضاء مختلفة و تعارض هذه الأعضاء هو كتعارض الموت و الحياة ، و تعارض الإنتاج والتدمير . أن العقل و المنهاج والإدراك ، كل هذه تقتل حينما تعرف ، فالشيء المعروف يصبح ذاتاً متخشبة متحجرة قابلة للقياس و التجزئة ، أما الرؤيا الوجدانية فإنها من جهة أخرى ، تحيي و تنعش وتمتص التفاصيل و تصوغها في وحدة حية محسوسة باطنياً)) (راجع شبنغلر: 1964، 113) .

مما سبق يتبين إن الحضارة الغربية استنفدت قدراتها ، و محاولة إنقاذها بالديانة المسيحية التي دخلت عليها من المشرق قد أكملت انفراط العقد ـ إذا جاز التعبير ـ بتحول المجتمع من خضوعه لسيطرة الدولة إلى متجهٍ نحو فرديةٍ المادية و أخر منكفئ زاهدٌ يرجو نعيم الآخرة . لكن الحقيقة حسب رأي " شبنغلر" متمثلة في الحضارة الغربية وصلت إلى مدنيتها التي تمثل حلول العقل محل الرؤية الروحانية الوجدانية للنفس . و الفارق بين من أبدعوا الحضارة و من يبكون عليها يحدده " شبنغلر" بقوله ((بينما كان يقاد اليوناني ليعبر عن نبذه للمواقف المطلقة باحتقاره للماضي الفكري ، نقاد نحن للحذو حذوه بواسطة أدركنا لذلك الماضي كنظام)) (شبنغلر: 1964، 113) . فالحضارة إبداع و تمرد على الماضي يبعث على التجديد في روح الحضارة لا في أشكالها الميتة . فإذا كانت طبيعة الحضاريتين الإغريقية و اليونانية خضوع الفرد للجماعة، فإن الكنيسة على ما يبدو حاولت تحقيق ذلك ، بأن توحد الغرب تحت سلطانها بوصفها ممثلة الدول أو الجماعة ، إلا أنها فشلت في إنقاذ المجتمع الغربي من ضياعه و وصلت ما إلى يسمى بالعصور المظلمة ، و ربما يعود الأشكال إلى تركيبة الامبرطورية حيث أخضع الرومان قوميات متعددة الثقافات لسلطانهم مما أسهم في خلق حالة من الصراع داخل تلك الامبرطورية . وبالمفهوم المنطقي يبدو إننا أمام إحدى الأغاليط المنطقية و هي اغلوطة بعدما بسبب. فقد أدت إلى الاعتقاد بأن الحضارة الرومانية انهارت بعد دخول المسيحية إليها في الحقيقة الأمر تشير إلى أنها قد اكتملت دورتها كما أوضح " شبنغلر " في قوله السلف الذكر . و قد يعود هذا الفشل لأحد الاحتمالين : أما أن المسيحية بطابعها الروحاني لم تستطع اختراق الطابع المادي الواقعي الحسي الذي يؤمن بالتجسيد ، بل أكثر من ذلك أن ذلك الفكر الواقعي الحسي أثر في صلب العقيدة المسيحية من خلال أدخال فكر التثليث إلى صلب العقيدة المسيحية، وبالإضافة إلى محاولة الكنيسة لتوحيد اللغة من خلال اعتماد اللاتينية لغة لأوروبا و إقصاء اللغات القومية و الثرات الروماني و الإغريقي و تحريمه ، و إبقائها على الإقطاع كنظام اقتصادي ترعاه الكنيسة فحسب قول " توينبي " ((أن التي خلقت الامبرطورية الرومانية في الغرب ، ليس اظهر المستفيدين ..... فإن الكنيسة المسيحية هي أظهر المستفيدين من الخدمة العامة الرومانية ، و قد اقتبسته جزئياً دفعة واحدة)) (توينبي ج3 : 1960، 132) مما زاد الأحول تأزماً و أدى إلى ظهور عصر النهضة.

أما لاحتمال الثاني هو الفهم الخاطئ للمسيحية الذي برز في السلوك الذي ساد بعد دخول المسيحية حيث انقسم المجتمع بين الولاء للمنفعة الذاتية و بين الاعتكاف وازدراء الحياة الاجتماعية . ففي كلا الحالتين لم يبقى الغرب على ثقافته السابقة و لم يستوعب الثقافة المسيحية بتصورها الذي دخلت عليه به. يبقى احتمال ثالث يساند الاحتمال السابق و يمكن اعتباره داعماً له و يظهر ذلك في التناقض بين قولين في ثنايا المسيحية . الأول يدعو إلى المحبة في إنجيل متى أصحاح 22 الآيات 37 -39 ((أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل روحك ومن كل فكرك هذه هي الوصية الأولى والعظمى و الثانية قبلها أحب جارك كما تحب نفسك)) (توينبي ج3: 1960، 148 – 149) . في حين أن القول الثاني المنسوب إلى المسيح مناقض للأول حيث يقول في إنجيل متى 10 الآيات 34 - 36((لا تضنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض . ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً)) ((فإني جئت لا فرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها و الكنة و حماتها و أعداء الإنسان أهل بيته)) (توينبي ج1: 1960، 257) . فتمت تناقض بين القولين . وهذا التناقض ينسحب أثرة على العلاقات و الحياة الاجتماعية داخل المجتمع بين داعٍ إلى السلام و داعٍ إلى العنف . فالقول الثاني ربما يناسب المسيطر النظام الإقطاعي الروماني و يبرر الخضوع أو إخضاع الأفراد لسلطان الدولةً و هذا القول يعطي المشروعية لحالة العنف و الحروب التي شاهدتها أوروبا ، ومن ثم أجزاء كبيرة من العالم خلال ما يسمى بالحرب العالمية الأولى و تليها الثانية وتبعهما من احتلال لمناطق عديدة في العالم أخضعت قسراً لسلطان دول غربية ، أنها تعبير عن الحالة من التطرف ، بينما الأول يقيم العلاقة على أساس المحبة و الأخوة ، فالهوة شاسعة بينما . و في كل الأحوال تكون النتيجة أن تلك الحضارة قد بلغت

منتهاها و ليس لديها شيء جديد . و يقر" توينبي " بانهيار الحضارة الغربية و لكن ليس بسبب دخُول المسيحية . فهو يرى أن الأديان هي جوهر الحضارات وعامل توحيد للمجتمعات . بل يعزو ذلك الانهيار إلى عوامل ذاتية داخل المجتمع منها ما يعود إلى ضعف السلطة الحاكمة و ترهلها . و انعدام المحاكاة بينها و بين موطنها ، و عجز الأقلية المبدعة و انعدام التوازن بين الجانب الروحي المادي و أن عودتها إذا قُدِرَ لها العودة رهن بقدرتها على فهم حقيقة الأزمة التي تعانيها من تغول المدنية فيها، و ذلك من خلال القوة المبدعة فيها ، التي عليها أن تضع حلولاً لازمة الحضارة و تجبر الآخرين على إتباعها هذا من ناحية و عونٌ إلهيٌ من ناحية أخرى . (راجع توينبي ج1: 1960، 357 - 358) و بهذا يمكن اعتبار " توينبي " يمثل الرأي مخالف لأنصار الرأي القائل بان سبب انهيار الحضارة الرومانية دخول المسيحية . فهو عندما يتحدث عن الغرب يصفه المسيحي في تمييزه عن غيره من الحضارات. و يرى أن المسيحية نتيجة وليست سبب لانهيار الحضارة الرومانية حيث يقول ((لقد انبعث المسيحية من بين ثنايا العناء الروحي الذي جاء نتيجة لانهيار الحضارة الهلينية . غير أن هذا كان أخر فصل من قصة طويلة . فإن للمسيحية جذورا من الديانتين اليهودية و الزرادشتية)) (توينبي ج 1: 1960، 163) .

الرأي الثاني: انصار الرأي بأن أوروبا قد تحددت هويتها و أدركت وعيها بذاتها بعد انهيار الامبرطورية الرومانية وسلطة الكنيسة . يرى المؤرخ الفرنسي " مارك بلوك " (Morc Bloch 1886_ 1944) أن ((أوروبا برزت إلى الوجود يوم انهيارات الامبرطورية الرومانية)) (قرم: 2011، 107) . كما يرى " لوسيان فيفر" (Lucien Febvre1878 -1956) ((أن أوروبا أصبحت إمكانية ما أن بدأت الامبراطورية بالتفكك)) (قرم: 2011، 107) . و يستدل المؤرخ الفرنسي " جاك لوغوف " على صحة رؤيته بالرأيين السابقين .حيث يقول ((أوضحت العصور الوسطى ، و غالباً ما شكلت المميزات الحقيقية او الإشكالية العائدة لأوروبا ، و التي هي على التولي : تداخل الواحدة الكامنة بتنوع أساسي ؛ اختلاط الشعوب الانقسامات و التناقضات بين الغرب والشرق ، والشمال والجنوب ؛غموض الثغور الشرقي و الأولية الموحدة للثقافة)) (قرم : 2011، 107) . هنا نلاحظ أنه يرى أن انهيار الامبراطورية هو انهيار السد العائق للحضارة الغربية و أن المسيحية فتحت الباب أمام حركة الاتفاق والاختلاف في جدلية حددت المعالم الثقافية للحضارة الأوروبية و شكلت الوعي الأوربي الموحد عبر صراع مرير أدى إلى تغيرات طالت حتى الكنيسة ذاتها ، فمن سيطرة الكنيسة إلى الخروج من سلطانها من خلال بروز الدول القومية ، والكنائس المتعدد بتعددها مذاهبها و ظهور عصر النهضة و الحداثة وما رفقها من تقدم علمي وصناعي وحروب صراعات ، كل ذلك كان نتيجته تشكيل الوعي الأوروبي بعد تحرره من سلطان الكنيسة (قرم: 2011، 107) . أن هذا الرأي يثير تساؤلات عدة :هل تحرت حقاً أوروبا من سلطان الكنيسة أم طوعت المفهوم الديني الوظيفي للكنيسة لمصالحها ؟ أما أن الكنيسة كيفت نفسها مع السياق التاريخي للأحدث حفاظاً على وجودها في المجتمع الغربي ؟ . إذا كانت الكنيسة وريثة الامبرطورية الرومانية في نمط الإدارة و التنظيم في كافة جوانب الحياة، فإن رجال الدين قد استفادوا إلا إن التطور السياسي للأحدث بعد ذلك تأرجح بين الاستفادة وبين استغلالها من قبل رجال الدول القومية - فيما بعد - لشرعنه نظامهم السياسي و لتبرير توجهاتهم السياسية و الاقتصادية . إذ أن العلاقة بين الكنيسة الممثلة للديانة المسيحية وبين المجتمعات الغربية مرتبطة بديناميكية الحياة بما فيها من ثقافة و متطلبات حياتية و صراعات داخل المجتمع .ومثال على ذلك ، فإن الكنيسة رغم الطابع الروحي للمسيحية وجدت نفسها مضطرة لإثبات وجودها مدفوعة للخوض في القضايا الحياتية لكسب قلوب الناس والمشاركة في الدولة إن لم يكن السيطرة عليها في الشؤون العامة . وذلك بتنصير بعض السياسيين وادخل بعض عناصرها في دوائر الدولة بل وصل الأمر إلى حد السيطرة على الجيش بدخول العديد من التابعين لها ضمن صفوف الجيش، بل وصل الصراع بين الكنيسة والدول للعداء المباشر باستخدام المنشورات ثم باستخدام الموارد المتاحة من أموال وسلاح . و هذه الحالة تمثل حالة من النكوص الروحي للمسيحية حيث أقحمت نفسها في أساليب العمل الدنيوية . (راجع توينبي ج3: 1960، 208) . و يبرر ذلك بقوله ((فلا عجب والحال هذه ، إذا رأينا الكارثة تحل بالقواعد الأمامية للكنيسة. وهي لا تستطيع أن تؤدي واجبها الروحي إلا بعد مكابدة المشكلات الدنيوية ، متذرعة بما تصنعه الدول من سلاح)) (توينبي ج3: 1960، 207) . فالكنيسة أصبحت طرفاً في صراع التيارات الفكرية في أوروبا وليست حكماً أو جهة تشريعية محايدة ،حيث عُدَّتْ مناصرة للإقطاع في العصور الوسطى اعتبرت اكتشافات العلماء المخالفة لفكرها هرطقةٍ و زندقةٍ ، ما افرز تيارات فكرية وسياسية مناهضة لها أدت إلى ظهور عصور النهضة ، و برزت معه كنائس متعددة ومنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية الأمم ،تماشيً مع التغيرات التي طرأت على أوروبا ، بل يمكن اعتبارها مشرعنة لتوجهات تلك الدولة . وبالتالي فإن توصيف المؤرخ الفرنسي " جاك لوغوف " للحالة الأوروبية صحيح إلى حد ما ، فالمجتمعات الأوروبية خرجت من عباءة البابوية و لكن إلى أين ؟. أن الإنسان فرداً كان أم جماعة في أي حضارة لا بدله من مرجعية روحية يبني عليها حضارته ، وتسهم في تشكيل وعيه المشترك بالذات الحضارية التي ينتمي إليها . فهذا التحرر والخروج من عباءة البابوية هل يشير إلى تجديداً في الهوية الحضارية ؟ أما هو نكوصاً حضارياً ؟ تتبدى للعيان أبجديات النكوص في الأفق المسيحي مع دخوله الحياة العملية في

المجتمعات الأوروبية حيث لم يبتكر آليات خاصة به تواكب طرحه الحضاري بل استعاد بالمورث الإغريقي واليهودي والروماني ، و بمعنى تسرب الطابع المادي المناقض للطابع الروحي للمسيحية . فعلي المستوى الإصلاحي استعارت مصطلح المجمع (ecciesia) ذو المعنى السياسي لدى اليونان حيث يتم طرحه ومناقشة الآراء السياسية في الجمعية العامة للسكان و أكسبته الكنيسة معناً دينياً بقصد به الجماعة المسيحية محلياً والدين العالمي آنٍ واحد . بل أن الأمر تعدى الاستعارة الاصطلاحية إلى استعارة الطقوس الدينية . فالقداس (Leitourg) الذي كان موجود في ق١٥ قبل الميلاد في أتينا استخدمته المسيحية في القربان المقدس و المشاركة في الغشاء الرباني . والمشاركة في الخدمة الدينية والضرائب الاختيارية . والمشاركة أخذت من اليونان حيث كانت يعني المشاركة في المصلحة الاجتماعية من خلال جماعة السياسية، و يرى " توينبي" أن ذلك يمثل نوع من التسامي لما هو مادي و الارتقاء به إلى المستوى الروحي (راجع توينبي ج3: 1960، 198 – 200) . و بمعنى أخر فإن الحضارة الرومانية صبغت المسيحية بطابعها الثقافي الوثني بنوعٍ من المقاربة بين مورثها الحضاري وبين المسيحية الوافد إليها من الشرق . وذروة هذه المقاربة تبرز في فكرة التثليث والتجسيدً التي نزلت بما هو روحي إلى المستوى المادي . فلم تتقبل العقلية الحسية الواقعية لأوروبا فكرة أن يكون المسيح من غير أبٍ . من هنا يمكن القول أن المسيحية الغربية امتداد للحضارة الرومانية ، بما فيها من إشكاليات حاولت إيجاد حلول لها بإلباسها العباءة الإلهية بقداستها، و أصبحت الكنيسة ناطقة باسم الرب . وبقدر ما استعانت بالموروث الإغريقية والروماني سعت إلى بسط سلطنها الدنيوي على أوروبا المتعددة العراق و الثقافات و اللغات لتجعل منه شعب واحد ، ليس بتوافق والانسجام والانصهار ، بل بالقوة و القهر . وهي بذلك كانت وريثة الإقطاع من حيث فرض الولاء والطاعة للجماعة أو الدولة التي لا يشعر الفرد بانتمائه إليها . ربما يرجع الشعور بعدم الانتماء إلى الطبيعة البشرية المتناقضة التي بقدر ما تميل إلى الاجتماع بقدر ما تنفر من المغاير لهويتها بوصفه أخر ((خُلِقَ الإنسان ليعيش في مجتمعات صغيرة جداً ، وكون المجتمعات البدائية على هذه الصورة ، .... ما تزال النفس البشرية يحيا في ذاتها تختفي تلك العادات التي لولاها ما قدر للحضارات أن تخرج إلى الوجود ..... أن الإنسان المتحضر يختلف عن الإنسان البدائي بذلك القدر الهائل من المعارف والعادات التي اكتسبها ..... غير أن الإنسان الطبيعي ما يزال يرقد تحت تلك الطبائع المكتسبة ، ولم يصبه تغير من الناحية العملية ..... أن الطبيعة البدائية ـ إن تبدّت خامدة مكبوتة ـ تبقى في أعماق الشعور ..... و رغم ما يبدو من اتساع الحضارات أن قورنت بالجماعات الضئيلة التي هُيئنا لها بالغريزة ، فإن لها مع ذلك نفس الخاصية ، وهي أنها تضم بين ظهرانيها أقواماً و تقصي آخرين . أن بين الأمة ـ أياً ما تكون ضخامتها ـ وبين البشرية من البعد ما بين المتناهي و اللامتناهي ، بين المغلق والمفتوح)) (توينبي ج3: 1960، 92) . هذه الطبيعة وغيرها من الظروف ساعدت على العودة إلى المتناهي المتمثل في الهوية القومية والدولة القومية في أوروبا هذا من ناحية ، ومن ناحية أخر يقول " توينبي " ((أن الحضارات المنتمية إلى الجيل الحضاري الثالث ـ وهي التي طفق تاريخها يحمل بين طياته نهضة الحضارة السالفة وينقلها على طول المدى ـ كان ينبغي لها ـ لذلك ـ أن توفق غاية التوفيق في أن تخلّص من شباك العقيدة الدينية التي بعثتها الحضارة السالفة إلى الوجود)) (توينبي ج3: 1960، 205) . و بالتالي ما حدث من تغيرات بعد انهيار سلطان الكنيسة هو حالة من حالات الارتداد . ولكن هذا الارتداد بقدر ما هو تحرر كما يصفه " جاك لوغوف " إلا أنه لم يعود إلى ما قبل المسيحية بشكل كامل بقدر ما هي عودة جزئية لما كان من تراث الغريق واليونان بعباءة مسيحية ويمكن القول أن هذا التحرر أطلق العنان للاقتصاد الرأسمالي و الاكتشافات العلمية والتحديث الصناعي والاتجاه نحو الفردية وليس الخضوع للجماعة كما كان في المجتمع الروماني وظهرت الصراعات القومية بين الدول الغربية . فهو تحرر مادي من ناحية ومن ناحية أخر إطلاق العنان للهويات القومية من خلال عودة الدول القومية المتصارعة من أجل السيطرة على موارد الطاقة وموارد الخام لتغذية الاقتصاد الرأسمالي الآخذ في الصعود مع ظهور الثروة الصناعية والحديث ، مع ملاحظة أن الغزو الحروب جزء من التاريخ الروماني وما قبله . وإذا كانت الكنيسة تمارس القهر في أوروبا و تحتكر التجارة الخارجية والتي كان أغلبها بحرياً ، فإن التمرد على الكنيسة كان في جزء منه متمثل في أعمال القرصنة التي كان يقوم بها الأسبان و البرتغاليين وبغطاء ديني، فكما كان يقول المؤرخ " جان ميشال سليمان" ((أبداً لم يفصل البرتغاليون و الاسبانيون هذين الوجهين لما كانوا يعتبرونه رسالة إلهية : غزو الأسواق العالمية وغزو النفوس بالتبشير الإنجيلي وهو تمهيد لسيطرتها السياسية ومنتهاها)) (قرم: 2007، 116) .

دور الفكر الفلسفي في جدل الهوية الحضارية:

هذا المخاض لم ينشأ نتيجة تفاعلات اعتباطية في أوروبا بل أسهمت فيه الفلسفات التي رافقت تلك الأزمة ، فبالرغم من أن تلك الفلسفات كانت متناقضة إلى حد ما إلا أنها بمجملها تحدو نحو تغيير الواقع الحضاري المتحقق و المتأزم في العصور الوسطى . فالثورات الذي حدثت برغم شعبيتها إلا أنها قامت على مجموعة من المبادئ التي أسس لها مجموعة من الفلاسفة أمثال " جان جاك روسو" . إلا أن التناقضات الفكرية بين الفلسفات خلقت اتجاهات سياسية واجتماعية وتكوينات حضارية متباينة دعمت تباين

حدود الهويات القومية وساهمة في تشكيل محاور و تحالفات أوروبية متصارعة على حدود التحكم والسيطرة على الأسواق و الثروات في العالم لتغذية الاقتصاديات الأخذة في النمو. فلقد شكل الاقتصاد والدين قضيتين أسياسيتين في الأزمة الأوروبية . فالاقتصاد بوجه الاجتماعي افرز صرع حضارياً بين طبقات المجتمع ، كما افرز نظريات متناقضة في تفسير الصراع القائم والحلول الفلسفية . و ابرز هذا التناقض ذلك التناقض بين الماركسية وبين الرأسمالية كما نراها عند " آدم اسمث ". فرغم الوحدة الجغرافية والدينية والتقارب الثقافي وصلت أوروبا إلى الانقسام إلى محورين متصارعين .

أما من الجانب الديني فإن الانتماء إلى دين واحد (المسيحية) فقد كان يحمل بين طياته اختلافاً من حيث التصورات اللاهوتية نتج عنها اتجاهين مذهبين . فبالإضافة إلى الكاثوليكية الأم فابرز معاقل الأرثذوكسية روسيا واليونان بينما اتجه أغلب أوروبا البروتستنتية التي انتفضت على سلطان الكنيسة الديني و الدنيوي حيث راءت في علمانية الدول (فصل الدين عن الدولة) ضرورة من ضرورات التحرر والتقدم .

حدود الهوية الحضارية لمفهوم الغرب:

من هنا بدأ يظهر المفهوم أكثر وضوحاً من الناحية الجغرافية والدينية إلا أنه من الناحية السياسية والعسكرية لم يكتمل إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. و تشكيل الحلفي وارسو و الأطلسي، والتحول إلى الحرب الباردة. و زعامة الغرب تحولت من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية هذه النقلة التحولية التي استمرت عقود من الزمن و تُعدُّ من نتاج فكر التنوير ، أنتجت فكر الحداثة وما بعد الحداثة . و كان لهما أثر في مدنية الغرب وتوسعه الاستعمار. فإذا كانت الحداثة تركز على الناحية التنظيمية في تكوين المجتمعات والمدن والمعمار فإن ما بعد الحداثة ركز على الناحية الجمالية . فالحداثة تركز ((على ضرورة إعطاء الأولوية لبعض المكونات كالقول بأسبقية الوظيفة على الشكل ومراعاة الجوانب العاطفية والصحية باعتبارهما عمليات لا يمكن حصول الإنتاج بدونها ، في حين أن فلسفة ما يعد الحداثة الرأسمالية على تحديد وتشكيل و توحيد الصورة باعتبارهم آليات تشكيل الوعي البشري الذي ليس سوى وعي الشكل الطبقي الجديد ..... لقد أصبح وعيها ذاك محاصراً بشكل و مضمون الصورة)) (بوجنال: 2010، 14 - 15) أن هذا يشير إلى الاعتماد على قوتين لدى الإنسان وهما الشهوانية والعقلية وابتعاد الوسط بينهما المتمثل في القوى الغضبية (الثيموس) وبالتالي ضمان الإنسان لحبه للحياة وعدم استعداده للموت من أجل القضايا التي تمس كرامته . ويبقى استخدام العقل فقط لتلبية رغبة النزعة الشهوانية ، وهنا تلعب الدعاية للشكل الجمالي دور هام في فاعلية حركة السوق ورأس المال وتشن الحروب في الخارج لفتح الأسواق لرأس المال ويماس الضغط داخل المجتمع من أجل توحيده لغاية وهي إعداد الجيوش لشن الحروب للحد من منافسة الآخرين . فمن المفارقات أن ما تطرحه فلسفة التنوير من مبادئ أراد لها الغرب أن تكون عالمية و لا يتطرق الشك لإنسانيتها ، ولكن الممارسة الغربية مناقضة تماماً لها ، وكأننا أمام أسطورة النبي الكاذب التي تحدث عنها الكاتب الساخر " لوسيان " في ق2م ((في أحد مؤلفاته الناجحة جداً حلل بتفصيل شديد النجاح الحقيقي للنبي الكذاب ، اسكندر أبونوتيكوس و لثعبانه الإله جليكون ،الحية القاتلة التي تتلوى حسب رغباته والتي كان النبي الكذاب يخفي رأسها الحقيقي تحت معطفه ويستبدل بها رأساً أخرى اصطناعية تقوم بالتنبؤات بواسطة بعض الحيل المتقنة . وفي المناسبة نفسها كان لوسيان يعرض على خشبة المسرح شخصية ساذجة ،تؤمن بالخزعبلات)) (بورجوه: 2015: 29) . ففي حديث " فوكوياما " عن آلية الرغبة يشير إلى ترك البحث مؤقتاً فيما إذا كان للتاريخ غاية أخلاقية وإنسانية أم لا ؟. و يرى أن التاريخ يسير سير تقدمياً بفضل التراكم المعرفي والمنهج العلمي ، و أن تمت وسيلتان لتحقق العلوم الطبيعية الحديثة تغيرات تاريخية تُعَدُّ غاية وعالمية الوسيلة الأولى : التنافس العسكري الذي يرى فيه وسيلة لتطور البحث العلمي نتيجة للحاجة الحربية إلى تكنلوجيا الحروب و التي يمكن من خلالها أن تتحول المجتمعات إلى العقلانية والتوحد ، فالدول التي تسعى إلى الحفاظ على سيادتها لابد أن تمتلك تكنولوجيا القوة التي تمنحها القدرة على خوض الحروب .

الوسيلة الثانية : التدليل المستمر والمرحلي للطبيعة لإشباع الحاجات الإنسانية و ذلك من خلال التنمية الاقتصادية بالاستغلال الأمثل للعقل في حلّ مشاكل التنظيم الاجتماعي و حلّ مشاكل تقسيم حي فرضته ضرورات الحياة و الخوف من ويلات الحروب التي عاشتها . و العمل من أجل تحقيق نمو اقتصاد هائل قادر على توسيع حجم الأسواق (راجع فوكوياما: 1993، 77 - 81) . عليه يمكن القول أن ما تشكل من وجود أطلق عليه الغرب لم يستند إلى بنية ثقافية حضارية واحدة بل ائتلاف مصلحي . هذا التصور المادي للحضارة و صيرورتها يكشف عن تناقضات نتجت عن طبيعة الأزمة التي عاشتها الحضارة الأوروبية . فهو مادي بتركيزه على جوانب ذات طبيعة حسية ولغابات حسية تجعل من الإنسان مجرد آلة و غرائز لا روح فيها إلا روح القهر للآخر ، والخوف جزء من كيانه . أنها المدنية الموغلة في التوحش و ازدواجية الخطاب المصاب بالانفصام في الشخصية بين المبادئ المعلنة بإنسانيتها والأفعال المناقضة لها. وإذا جاز التعبير بين القدر المرجوة و بين القدرة المتحققة . ف " فكوياما "

يتحدث عن العلم المتاح للإنسانية وعن أن الدول قد تستورده من أعدائها لتحصين نفسها ، وأن التنافس العسكري مجال استثماري رائد للاقتصاد و العلم على حد سواء . وهذا يعني انعدام الغاية الأخلاقية الإنسانية للحضارة الغربية و أن الغاية تبرر الوسيلة ، وهذا منافٍ للقيم الدينية والحضارية . إذ أن القيم الحضارية تهدف استمرار النوع البشري والحفاظ عليه و ليس التنافس العسكري وانتشار الحروب المدمرة التي ليس لها أي وجه قيمي في القيم الحضارية ، بل تُعدُّ أزمة من الأزمات الناشئة عن حالة انعدام التوازن بين الجانبين الروحي و المادي . وهذا الانفصام بين الخطاب و بين الواقع يولد انعدام الثقة بين المجتمعات ويزيد من حدة الصراع بين الحضارات . فكيف لمجتمع أن يثق في مخرجات الحضارة الغربية الثقافية ـ هذا إذا سلمنا مجازاً بقبول المجتمعات الثقافة مغايرة لها ـ وهو يلحظ تناقض الطرح التنوري بما فيه من قيم إنسانية من عدالة ومساواة وحرية و إخاء ... الخ من جهة ، ومن الناحية الواقعية يرى صورة الاستعمار و القهر ؟ . ليس سهلاً تصديق قول الجماعي الفرنسي " البير باتية " ، و أخذه على علّاته ـ بما يحمله من نزعة تبريرية ـ حين قال في مؤتمر رابطة حقوق الإنسان ، المكرَّس للاستعمار سنة 1931 م ((الاستعمار يكون شرعياً عندما يحمل معه الشعب المُستعمِر كنزاً من الأفكار والمشاعر يغني شعوباً أخر، وعندها لا يكون استعماراً حقاً بل يكون واجباً ..... يبدو لي أن فرنسا الحديثة ، بنت النهضة ، وريثة القرن السابع عشر و الثورة ، تمثل مثالاً في العالم له قيمة خاصة به ، و يجب عليها أن تنتشر في الكون)) (قرم: 2007، 87 - 88) . في هذا القول تبرز النزعة العدوانية المغلفة بالنزعة الإنسانية ، و الخلط بين الخصوصية الحضارية بوصفها قيمة خاصة به و بين عدم الاعتراف بخصوصية الحضارات الأخر، ويبرز معه السقوط في أوهام الكهف والقبيلة التي هي من بنات المنهج العلمي للفيلسوف " بيكون " حيث يبرز تمجيد الذات المنافي للعلم والمنطق . يقول " بيكون " ((تلك الأوهام والتصورات الزائفة ـ استحوذت على الذهن البشري وما زلت متجذرة فيه بعمق ، ..... ، تمت أربعة أنواع من الأوهام تحدق بالعقل البشري ..... النوع الأول القبيلة ..... النوع الثاني أوهام الكهف ..... الثالث أوهام السوق ..... الرابع أوهام المسرح .... من طبيعة الفهم البشري الخاصة أنه يميل إلى أن يفترض في العالم نظاماً واطراداً أكثر مما يجده فيه . و رغم وجود أشياء كثيرة في الطبيعة فريدة في نوعها وعديمة النظير . فإن الذهن البشري عندما يتبنى رأياً (سواء لأنه الرأي السائد أو لأنه يروقه ويَسُرُّوه) أن يقصر كل شيء عداه على أن يهمل هذه الشواهد السلبية أو يستخف بها . وأما أن يختلق تفرقة تسول له أن يزيحها ويندبها)) (بيكون: 2017، 20 - 22) . هذه الأوهام التي حذر منها " بيكون " هي ذاتها التي حذر منها " فيكو " في نظرية التقدم عند دراسته للحضارة و هي : وهم التهويل والتفخيم الذي يعبر عن تمجيد الذات الحضارية وتضخم أمجادها وثرائها وقوتها وهو ما اسماه " بيكون " وهم القبيلة . ووهم الثقافة الأكاديمية : وهو الاعتقاد بأن الشخصيات التي أثرت في مسار التاريخ هي بأنها على قدر من الثقافة والعلم . ويرى " فيكو" أن المجد التاريخي والثقافة الفكرية غير مرتبطين بالضرورة ، غير أن كون المؤرخ مثقف قاده ذلك إلى الاعتقاد بأن تلك الأفعال لا يقوى عليها الا مثقف وهذا الوهم هو ذاته ما الطلق عليه " بيكون " وهم الكهف (راجع صبحي: 1988، 156 – 157) . فالحقيقة تتطلب بحثاً موضوعياً بعيداً عن الانحياز للذات ، لأن ذلك لن يغير الحقيقة بقدر ما يكشف عن وجود تظليل و مجافة للموضوعية . يقول " شبنغلر " ((أن أي سؤال فلسفي فعلاً رغبة مقتنعة على تصريح واضح حازم عما هو مضمر في السؤال نفسه ، أن الأسئلة الكبرى لأي مرحلة من المراحل هي مائعة وراء كل مفهوم وأنه لذلك لا نستطيع أن نبلغ الأسرار النهائية إلا فقط بواسطة الوصول إلى مجموعة من الحلول المحدودة تاريخياً و وزنها بميزان متحرر من كل عامل شخصي تحرراً مطلقاً . أن من يدرس الجنس البشري لا يعالج أية وجهة نظر بوصفها على الصواب أو خطأ مطلقين . ولا يكفي أمام مشاكل خطيرة ، كالزمان ، أو الزواج أن يتوجه الإنسان إلى الخبرة الشخصية أو إلى الصوت الباطني أو العقل أو راء الأجداد أو المعاصرين . فهؤلاء قد يقولون ما هو صحيح بالنسبة إلى المستجوب نفسه أو بالنسبة إلى زمانه ، و لكن ليس هذا كل ما في الأمر . فالظاهرات في الحضارة تتحدث بلغة مختلفة ، و بالنسبة إلى الرجال الآخرين هناك حقائق مختلفة ، وعلى أن يقر بصحة جميعها أو أن لا صحة أية واحدة منها)) (شبنغلر: 1964، 74) .

الانفصام في الشخصية للهوية الحضارية للغرب :

أن الانفصام في الشخصية الحضارية الذي تعاني منه الحضارة الأوروبية يمكن في الهوة الواقع بين السطح والعمق . بين المظهر الذي يعبر عن القوة والمجد والواحدة و الانطلاقة الإنسانية العالمية وبين العمق الممزق باختلاف الهويات الثقافية ذات الأهداف المتباينة ، والقلق والخوف المزدوج (خوف داخلي بيني وخوف من الحضارات أخر) و خوف من العودة إلى الماضي المظلم فنحن أمام افتراضيتين: أما أن هذه الحضارة تعاني من أزمة التعبير عن الذات برؤية موحدة وأما أنها لم تمتلك تلك الهوية الجديدة بعد . أنها واقعة تحت سطوة الإقطاعي و لكن في حلّة جديدة يحاول من خلالها أن يمارس سطوته على العالم بعد أن كان يمارس سطوته على الأرياف في أوروبا . وبمعنى أخر ، خمرة قديمة في كأس جديدة ، فالتقنية التي حلّت محل المزارع والإقطاعي حل محله الرأسمالي ، والدين والسلاح لإضفاء المشروعية . فإذا كانت الدولة التي تدعوا إلى العولمة تخشى منها ،

رغم ادعائها بقوة حضارتها وتسعى لنشرها خدمة للبشرية ، فكيف يمكن تفسير ذلك ؟ . فبالإضافة إلى رأي " سيرج لأتوش " الذي طرحة في كتابة تغريب العالم (تناوله البحث عند الحديث عن العولمة في بداية البحث) ، ففرنسا تعني من أزمة هوية وواقعة في أزمة سببها التناقض والهوة بين مفهوم الأمة و المواطنة وبين التعددية العرقية والدينية الناتجة عن الهجرة الوافدة إلى فرنسا والمُحَّملة بروافد ثقافية ودينية مغايرة للثقافة الفرنسية . فاشتراط تعلم اللغة واحترام القانون الفرنسي غير كافٍ لأن يكون المهاجر فرنسياً أو غربياً من حيث الهوية الحضارية (راجع بوستي: 2019، 184) . فالحضارة بما تحويه من قيم ليست جلباب يمكن للمهاجر أن يستبدله متى شاء أو يرغمه أحد على خلعه وقتما شاء ، فهو جزء من بنية الداخلية المميز له بوصفه إنسانٍ حاملٍ لقيم . حتى في الولايات المتحدة الأمريكية التي يتمحور عليها الغرب ، و الناشئة من أعراق متعددة ، وحديثة العهد بالنشأة مقارنة بغيرها من الحضارات نجد هذا التنافس بين التسويق للعولمة وبين الخوف منها . إذ يطالعنا المتحدث باسم مجلس النواب الأمريكي " نيوت جنجريتش " بحديثة المناقض للعولمة حيث يرى أن الحضارة الأمريكية تظهر عليها بوارد التحلل ((و يعتقد جنجريتش ..... ان الحضارة الأمريكية يتهددها خطر التنوع الثقافي الذي ظهر في الولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين ، ويعتقد كذلك أن هذا التنوع جاء من ناحية نتيجة الهجرات الواسعة إلى داخل الولايات المتحدة من الستينات ، وكذلك نتيجة حركة الحقوق المدنية التي طالبت بالمساواة في المعاملة والحقوق بالنسبة للنساء والأقليات ، ويذهب جنجريتش إلى أن الدولة يجب أن تسيطر على التنوع وتنظمه على جوهر ما هو أمريكي لكي تبقى أمريكيا كحضارة يجب أن تكون الانجليزية لغتنا المشتركة . فإذا سمحنا بأن تكون الهيمنة لنموذج متعدد الثقافات في أمريكيا ذات اللغات المتعددة فإن المجتمع ما له إلا التفكك)) (باترسون: 2001، 6 – 7) و يُعتبر " جنجريتش " متأثراً بآراء " هنتنغتون" و يتفق معه على (أن قدر كبير من الديمقراطية يشكل خطراً ، وأن قيادة الدول لابد وأن تكون في يدي النخبة المنظمة) (باترسون: 2001، 8 – 9) .

فإذا كانت هذه الدول التي ترى في نفسها تمثل حضارة كونية ـ كما يصفها " هنتنغتون " وباقي الحضارات إقليمية (راجع هنتنغتون: 2005، 37 – 133) أو كما يصفها "موللر" (وهو معارض لهنتنغتون ومؤيد للعولمة) بأنها الأقوى (راجع موللر: 2005، 154) . فكيف تخشى على ذاتها الحضارية المتمثلة في ثقافتها من الحضارات الأخر ؟ وهل أعاد "جنجريتش" قرع أجراس الخطر الذي قرعه " شبنغلر" ؟ . فبالإضافة إلى خطر التنوع الثقافي الذي راء فيه "جنجريتش" خطر على أمريكيا يضيف إليه فشل المؤسسات والبرامج التي صاغتها التنظيم المجتمع في الستينات عن القرن العشرين و التي نشرت ثقافة العنف والفقر مما يهدد سلامة الحضارة الأمريكية (باترسون: 2001، 6) . أن ما سبق يجعل من الفرضيتين السابقتين موضع القبول إلى حد ما . فكون أن الغرب لم يمتلك هوية جديدة فإن ذلك يتضح من أن هذه الحضارة ما زلت تدور في فلك السيطرة المادية والتي كانت سبب في الصراعات التي شهدتها أوروبا وسبق الحديث عنها وعن كيفية تطوير أدوات هذه السيطرة . ثم أن افتراض امتلاك هوية جديدة يعني قيم ثقافية جديدة أو حلَّ الأزمات التي تعاني منها الثقافة القديمة ، وليس الهروب من مواجهة الأزمات من خلال الاعتداد بالتقدم العلمي بالرغم من المنافع التي يجلبها ، إلا أنه قد يكون سبب في دمار الحضارات . وإذا كانت الحضارة الغربية ليست بجديدة فهل هذا يعني أن الأزمة التي يعيشها ذات صلة بالعجز عن التعبير عن الذات برؤية موحدة ؟ . يمكن القول بأن انعدام الرؤية الموحد يعود إلى تعدد الهويات الثقافية فكل منهم يريد الاحتفاظ بهويته وأن تكون له القدرة جعل الآخرين يدورن في فلكه . فالعلاقة بينهم علاقة نفعية رأسمالية مادية مع وجود حالة من الخوف المشترك من الحضارات الأخرى . فعندما يقول الرئيس الأمريكي السابق " ترامب " أمريكيا أولاً . فهو ليس تعبيراً شخصياً بل هو شعور داخل المجتمع . فلقد سبقه " جنجريتش " في ذلك عند حديثه عن إشكالية التنوع الثقافي وأثره على الحضارة الأمريكية ، و يفرق بين الحضارة الأمريكية والأوروبية و يرى أن ((الولايات المتحدة الحضارة لها مبادئها الأساسية المتمثلة في القوة الذاتية والمشروعات الحرة وروح الابتكار والاكتشاف وتفرد الخيرة الأمريكية . و يرى أن هذه المبادئ وضعت الولايات المتحدة في مسار انطلاق مغاير لأوروبا)) (باترسون: 2001، 8) . وبالتالي يمكن القول أن الأزمة الغربية مازالت قائمة و أنها تمثل حالة من الهروب المتسارع ، وحالة من الإشغال لكسب الوقت لإيجاد حلول تحول دون الانهيار والسعي من أجل تحقيق التوازن الحضاري ، لقد وفقت الحضارة الغربية أمام تحداً كان سببه مادياً متمثل في الصراع الطبقي الاقتصادي الحسي الذي لم تستطع تجاوزه حتى مع دخول المسيحية بل زادت من حدته ، بإضافة إلغاء الهويات الثقافية الحضارية . فلقد راكم الصراع المادي ـ رغم إسهامه في تطور الغرب علمياً وتكنولوجياً ـ صراعات كان أخرها الانقسام إلى معسكرين الأطلسي والاتحاد السوفيتي ، فهي لم تستطع الارتقاء بالمستوى الروحي الثقافي في موازاة التقدم المادي ، فكان التحدي القاتل للحضارة الغربية فكما يرى "شبنغلر" ((أن عصراً تسود فيه الآلية وتسيطر عليه الاتجاهات اللادينية لهو عصر تدهور واضمحلال)) (صبحي: 1989، 242) . و هذا يمثل هشاشةٌ في بنية الحضارة الغربية . و بالرغم من ذلك فنحن أمام قوة تفرض وجودها في شكل خطاب موحد يتجاوز الاختلاف البيني داخل هذا الفضاء الافتراضي المسمى بالغرب ، فما الطبيعة الخصوصية لهذا الفضاء الافتراضي ؟

طبيعة الفضاء الحضاري للغرب :

المدنية و الحرب في الحضارة الغربية :

المدنية الغربية الماضية سريعاً في التقدم لم تترك مجال للروح أن تلتقط أنفاسها لترتقي إلى مستوى التقدم المادي أو تكييف ذلك التقدم مع قيمها الروحية . فقمع الكنيسة للفكر والعلم ولّد نفوراً من الدين والقيم السائدة وانقساماً داخل الحضارة الغربية ((فما أن بدأ العلم الحديث في أبان القرن السابع عشر في التحرر من سحر فلسفة اليونان ، وأخذ يشق لنفسه أرضاً جديدة في مجال الفكر والثقافة ، كان أول ما خطر على بال كنيسة رومة أن أصدرت خطراً على " العدوان" الفكر الغربي المناقض لحليفها القديم وهو الفكر اليوناني ، كما لو كانت النظرية اليونانية التي تقرير أن الأرض مركز النظام الشمسي دعامة من دعائم العقيدة المسيحية أو إن تصحيح جاليلو وبطليموس خطئة دينية)) (توينبي ج3: 1960، 178) . و إذا كان هذا هو واقع فما الذي يعطي الغرب ذلك الشكل الموحد و لو بشكل افتراضي ؟ . قد تكون كلمة الغرب ذات المدلول الجغرافي شكلاً من أشكال الوحدة الأوربية . إلا أن التجاور وكونها قارة كان سبب في صراع مرير عاشته أوروبا ردحاً من الزُهن ، وبمعنى أخر أن الجغرافيا باتصالها بقدر ما تكون سبب في اتفاق قد تكون سبب في الاختلاف . وإذا كان للجغرافيا دورٍ في توحيد الغرب ، فإن ذلك يعود للانقسام الناتج الناشئ بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبح مفهوم الغرب يتجاوز الحدود الأوروبية ليشمل أمريكيا وكندا وأستراليا . فهو بمثابة الحلف العسكري السياسي والاقتصادي في مواجهة الآخر(المعسكر الشرقي) الذي هو في الواقع جزء من الجغرافيا الأوروبية . فالمدنية الغربية اخد طابعاً اقتصادياً تكنولوجياً يستدعي المنافسة الأسواق و المواد الخام تطلب دخول السياسية و الحرب كعاملين لخدمة الاقتصاد. ف ((الحرب ليست ظاهرة مستقلة ، بل استمرار للسياسة بوسائل مختلفة)) في نظر الغرب)) (كلاوزفيتز: 1997، 18) . فالغاية تبرر الوسيلة، فلا مكان للقيم الأخلاقية و الإنسانية للحضارة.

الشعور بالعالمية والكبرياء:

الحديث السابق عن توحد الغرب بعد حروب و تَزَعُمْ أمريكيا لهذا الغرب والشعور بالعالمية والكبرياء يعود بنا إلى زمن الامبراطورية الرومانية ، فبعد الاضطرابات والحروب التي شاهدتها أوروبا استطاعت الامبراطورية الرومانية أن تشكيل دولتها التي وُصِفت بالعالمية ولم يمكن ذلك بتوسع سلطاتها الجغرافي فحسب ، بل بانبهار الناس بها ، وأسرتْ القلوب والعقول على حدّ سواء . فأثارت إعجاب خصومها اليونانيين و وصفها "جيبون " فيما بعد بقرون بأنها تمثل فترة الهناء البشري . وأصبحت علاقة أوروبا بروما علاقة تبعية بوصفها القوة الحامية والرادعة . وعُدت روما ربان السفينة التي لا يمكن لأحدٍ من الغرب التخلي عنها (راجع توينبي ج3: 1960، 12) . فهو ذات الحال الذي يعشه الغرب اليوم رغم تبدل الزمن موسوم بذات الافتتان والكبرياء والغرور الذي هو طريق الانتحار . يقول" توينبي " ((أن النفس الواعية تستطيع أن تكون أداة الله المختارة لتحقق للإنسان تقدماً روحانياً معجزاً . لكنها قادرة كذلك على أن تقود نفسها إلى هاوية مؤسفة ، إن قادها إدراكها بأنها خلقت على صورة الإله ،إلى عبادة ذاتها . الافتتان بالذات بمثابة انتحار و هو ثمن خطيئة الكبرياء ، ضلال تتعرض له نفس الإنسان دوماً)) (توينبي ج3: 1960، 190). هذا الافتتان مصدره القوة الحربية والقوة المدنية المتمثلة في التكنولوجيا ، كأدوات للسيطرة وفرض الهيمنة . لكنا فقدان الرقي الثقافي للهوية ووحدتها المفترضة يبقى عائقاً أمام جعل هذه الهوية حقيقة واقع لا يتطرق إليها الشك . فتعدد الهويات الحضارية يعني أن تلك الوحدة قائمة على المصلحة الاقتصادية تساندها الجغرافيا . يقول " توينبي " ((أن الحضارة العلمانية الغربية الحديثة قد بلغت مؤخراً في المجالين الاقتصادي والتكنولوجي مكانة عالمية الطابع دون أن تدرك نجاحاً مشابهاً في المجالين السياسي والثقافي . بل أصبح التوحيد السياسي أمراً مشكوك فيه ، بعد ما كابده العالم من تجربة مدمّرة خلال حربين عالميين . دون أن يتعرض لتلك الضربة القاضية المألوفة التي ما برحت الثمن التقليدي للوحدة العالمية في تواريخ الحضارات))) توينبي ج3: 1960، 191) . و كأنه يود القول بأنه كان من الضرورة بمكان أن يتكرر الفعل الروماني من جديد لتتشكل تلك الامبراطورية التي تسبي النفوس و تخضعها لأردتها . فالهويات الثقافية لم تخفي و لم تنصهر في هوية موحدة لكن ضرورة الصراع العالمي بين القطبين فرض عليها قبول الدوران في فلك الولايات الأمريكية . وربما تكون مقولة الرئيس الأمريكي الأسبق " ترامب " ـ أمريكيا أولاً ـ أيقظت شيء من الخوف الأوروبي منها والتفكير في إنشاء قوة عسكرية أوروبية لحماية ذاتها قد تكون بديلاً لحلف الناتو . و الذي سبقه الاتحاد الأوروبي وقبلها السوق الأوروبية المشتركة . وهذا يشير إلى بوادر تصدع . فأمريكيا وأستراليا ليست ضمن الاتحاد الأوروبي إضافة إلى انسحاب بريطانيا منه . يضاف إلى ذلك انسحاب القوات الأمريكية المفاجئ من أفغانستان أغسطس 2021م يعطي حلفاها أحساس بعدم الأمن وشعور بإمكانية التخلي عنهم أن الحرب والصراع القائم على الردع ليس الدرع الكافي لحماية المجتمعات . فالمنتصر غالباً ما يكون متشردماً من الناحية الاجتماعية . فلقد كان من سلسلة الرهانات الأمريكية العشر في الربع الأخير من القرن الماضي ، انهيار الاتحاد السوفيتي (الاخبار -11 -5 -1981 سلسلة الرهانات الأمريكية – مجلة الاسبوع العربي العدد 1126 و قد تحقق ذلك و كان الإنفاق العسكري سبب من أسباب الانهيار ، إلا

أن الولايات المتحدة لم تدرك آن ذاك أنها أمام خيارين أحلاهما مرٌّ . حيث كان إما الانكفاء على الذات والاهتمام بقضاياها الداخلية وأما أن تلعب دور الشرطي العالم ، فاختارت الخيار الثاني وما يرتب عليها من زيادة في الإنفاق العسكري ، هذا الإنفاق الذي يرى فيه " فوكوياما " دعما للتكنولوجيا والاقتصاد في الدولة ، نعم هو مدعم و لكن للشركات الرأسمالية بينما كان مرهق و مستنزفاً لخزينة الدولة ، بينما الصين على سبيل المثال حافظة على نموها الاقتصادي وأصبحت تشير إليها العين الأوروبية بأنها الخطر الأصفر . هذا الخوف يأخذنا إلى الحديث عن عنصر أخر يعطي الغرب هذا الشعور من الوحدة .

الخوف من الخطر المشترك :

يعتبر الخوف حالة طبيعية لدى الإنسان ، فهو يمثل الرعب أو التحدي الذي يحث الإنسان على السعي لإيجاد حلول لتلك الأخطار التي تواجهه . إلا أن للخوف في الحضارة الغربية له جذور أسطورية خرافية كان لها تأثير في رسم صورته ذات الطابع الحسي والاهتمام بما هو واقعي متجسد ، و لها دور في تشكيل الروح الكلاسيكية الغربية . ((هناك خرافة إغريقية فريدة في نوعها وأهميتها ، وهذه الخرافة تقول بأن الرجل الأول الذي نزع القناع عن غموض اللامعقول المستتر لاقى حتفه نتيجة لجنوح سفينة . وذلك لأنه من المتوجب أن يترك كل ما لا شكل له أو مستعص على التعبير مستوراً ..... كان الشعور الديني في الإغريقي يركز ذاته يوماً بعد يوم على الحاضر المجسد)) (شبنغلر: 1964، 144 – 145) . هذا الخوف جعل اهتمام الحضارة الغربية منصب على ما هو قابل للقياس الحسي لم يخرج من إطاره حتى التصور الديني . ولذلك لم يكن سهل على اليونان تقبل فكرة أن هناك عالم أخر وحياة أخر بعد الموت كما طرحها سقراط الذي أُتُهم بالزندقة . كذلك جعل من أدمية المسيح عليه السلام غير مقبول من العقل المسيحي الغربي لأنها تجاوزت حدود العقل الغربي المرتبط بما هو سببي ومتجسد و مألوف . فالقاعدة السببية المألوفة لا ولاءة من غير أب وأُمٌ ، فكان السبب أن نُسِب إلى الله ابناً . فالمعجز خرق لقوانين العقل السببية. كل ذلك انعكس على العقلية الغربية و قيمها ، فرسم حالة من القلق وحالة من عدم الأمان النفسي من المجهول . وازداد عمق هذا القلق مع بلوغ الحضارة الغربية مرحلة المدنية بما تحمله من واقعية متوحشة لا مكان للضعف فيها . فتاريخ الغرب مثقل بالحروب الداخلية و الخارجية ، منها باسم الدين كالحروب الصليبية ومنها باسم الحضارة الإنسانية التي تُحتم ـ حسب راء الغرب ـ استعمار الشعوب البربرية من أجل نقل الحضارة إليها، إلا أن الشعوب التي وقعة تحت سطوة الاستعمار لم ترى في ذلك الفعل الغربي غير حقيقة واحدة واضحة وجلية ، أنه استعمار و يعني مساس بالهوية الحضارية وسلب للثروات ، فكان نتاج ذلك أن تلك الشعوب واجهت الاستعمار الغربي في حروب دامية ، وبعد التحرر تشكل لدى الطرفين خوف من الأخر . فالغرب يخشى من ردّ فعل الشعوب التي وقع عليها الاستعمار ، والشعوب التي احتلها الغرب تخشى من تكرار الأمر المرير . فرغم امتلاك الغرب العلم والتقنية ويستخدمها سلاح في وجهة الآخرين ؛ إلا أن أوجه الصراع ليست تقنية فحسب ، فلها وجوه عدة منها هو ثقافي وما هو ديني . و هذه الخشية ليست وليدة العصر الحالي بل هي منذ أيام الإمبراطوري الرومانية حيث قال " جوفينالJeven l " في القرن الثاني ميلادي ((نهر العاصي يصب نهر التيران)) (توينبي: ج3: 1960، 214) . في عصرنا الحالي ظهور ما يسمى بالإسلام فوبيا أو الخطر الصيني و قبلها الخطر الشيوعي كلها أخطار تعبر عن حالة الخوف والإحساس المشترك تفاديا لانفرط العقد الغربي من جهة ، ومن جهة أخر تجريم الأخر وجعله تحت الضغط الدائم . فالخطر الصيني ربما يكون حقيقة إما الإسلام فوبيا ففيه شيء من التهويل . و ذلك يعود إلى الخشية من انتشار الإسلام في أوروبا ، و في الوقت ذاته وسيلة تبرر التدخل في الدول الإسلامية سواءً كان عسكرياً مثلما حدث في العراق و أفغانستان ، أو ثقافياً مثل الضغط من أجل حذف الآيات القرآنية من المناهج التربوية لعلاقتها بفكر الجهاد مما يترتب عليه في حال قبوله أمرين ، الأول : حالة من الصراع الداخلي في تلك الدول التي عدّلت مناهجها التربوية انصياعاً لذلك الضغط ، كونه يخلق حالة من الرفض بوصفه مساس بالعقيدة الدينية و يُسهم في خلق حالة من التطرف المضاد يجعل الدولة في موضع اتهام بالخنوع وقد يصل إلى حد التكفير، وهذا في حد ذاته غاية يهدف إليها الغرب بأن يجعل من هذه الشعوب منشغلة بذاتها مما يبعد شبح الخوف عنه ، ويسهل عليه التدخل فيها، وهذا هو الأمر الثاني سياسياً بخلق تسويات في منطقة الشرق الأوسط تخدم مصالح الغرب هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى خلق حالة من الخوف داخل المجتمع الغربي من الإسلام بغية اصطناع حاجزاً نفسياً وثقافياً ، يُنفِّر الإنسان الغربي منه ، و يدعم حالة الغرور والكبرياء لديه و ترسخ فكرة أن قيمه هي الرائدة في العالم و ينبغي أن تسود العالم ، لذلك فإن الطرح الذي قدمه " هنتنغتون " عن الصراع الحضارات حدد فيه عنصرين هامين يرتكز عليها هذا الصراع ، هما اللغة بوصفها تعبر عن الثقافة والدين بوصفه موجه لقيم وسلوكيات المجتمعات . فالخشية من هذه القيم المغايرة لقيمة بحيويتها قوة تبعث على الخوف من تسربها إلى ثقافة المدنية فيفقده ما تبقى من هويته ، التي يرى " شبنغلر " أنها قد اكتملت ببلوغها صورتها النهائية (الكلاسيكية) في العصر الروماني . فبلوغها حالة المدنية ندير بالانهيار الروحي حيث يقول ((أن هذا الاكتمال الباطني والظاهري ، الخاتمة ،التي تنتظر كل حضارة حية ، هو مغزى جميع الانحطاطات التاريخية ، بما فيها الانحطاط الكلاسيكي الذي نعرف به معرفة تامة ، وبما فيها من انحطاط أخر يشابه الانحطاط

الكلاسيكي في مجراه ، وديمومته ، هذا الانحطاط الذي سيشغل القرون الأولى من دورة اللاليفية القادمة من الأعوام ، لكننا نرى الآن طلائعه ونحس به حولنا ، أعني أن به انحطاط الغرب)) (شبنغلر: 1964، 218) . فقراءته هذه بموضعيتها لامست الحقيقة رغم نعته من قبل الكثيرين بأنه ذو نزعة تشاؤمية . لكن الحقيقة التي أشار إلها يدركها الغرب تمام الإدراك ، وهي تشكل باعث للخوف على المصير المشترك فإذا كانت المصالح المشتركة ساهمت في تشكيل الفضاء الغربي بعد الحرب العالمية الثانية بوصفه فضاءٍ مسيحياً فهو أيضاً متعدد الهويات الثقافية من ناحية ومن ناحية أخر فإن إشارة " توينبي " حين شكك في إمكان بلوغ الغرب مرحلة الثقافية والسياسية كونه لم يكن هناك منتصر انتصار حاسم يجبر الأخرين على الانصياع لسلطانه ، لذلك تبقى المصلحة الاقتصادية التي كانت سبباً في الحربين العالميتين عاملاً لتوحيده ، ولذلك نجد في قول " غوسدور" تأكيد على ذلك و تعبير عن الخوف من انفراط العقد الغربي . حيث يقول ((أن الشكل الجغرافي للغرب يتخذ له ميدانيا شكلاً محدد ، من شأن أي تعديل فيه أن يفتعل صراعاً و يقتضي تفاوضاً . فالفضاء الذهبي يغتني بالاكتسابات الأساسية والعلوم والمؤسسات التي ستنظّم تطور المعرفة ونموها)) (قرم: 2011، 115) . فالتعديل في تصور الغرب يعني تضارب في المصالح ، وبالتالي العودة إلى زمن الحرب . أن ما سبق وخصوصاً رأي " توينبي " يعود بنا إلى رأي " ابن خلدون " الذي يرى قوة العصبية بقدرتها على قهر وإخضاع الأخرين تُعَدُ عاملاً من عوامل قيام الدولة بوصفها تعبيرٍ عن بلوغ الحضارة . و مع عدم وجود ذلك السلطان القاهر استعاض عنه الغرب بالمصالح الاقتصادية . لكن انعدام الترابط الثقافي والسياسي ، وعدم التخلي عن الهويات القومية بجعل من هذه الصور المعبرة عن الوحدة باعث على التخوف . هذا التخويف جعل من الغرب برسم صورة مقيتة للقومية ، إذ يساوي بين القومية وبين العنصرية وربطها أحياناً بالنازية والفاشية وويلات الحروب التي عاشتها أوروبا في ق20 . وهو نوع من التخويف يسعى الغرب إلى ترسيخه في وعي الإنسان الغربي بوصفها منافية للمدنية وتبعت على التعصب الذي تؤدي إلى الحرب التي لم تغب مآسيها عن الذاكرة ، ويسعى لترسيخ في ذهن الشعوب الأخر ليسهل عليه التدخل في شؤونها ، وصهرها في بوتقة الغرب بدعوى المدنية والإنسانية ،مستفيداً من سطوته ونفوده في المؤسسات المنظمات الدولية . فما لم يؤخذ بالمدنية (المنظمات الدولية) يؤخذ بالحرب و كان القاعدة القانونية للقانون الروماني القائلة بأن ((القوة تنشئ الحق وتحميه)) هي التي يرسم بها الغرب خريطته وتوجهاته استخدمت استخداماً سيئاً . و وفقا لمحددات قوة الحضارة و قدرتها على مواجهة التحديات ، فإن الحضارة الغربية يمكن وصفها بأنها عرجاء فاقدة للتوازن بين الجانبين الروحي و المادي . فالقوة مفهوم حمَّال أوجه ، الحضارة ثنائية القوى (الروحية و المادية) و الحضارة الغربية غلبت عليها النزعة المادية، و ربما كان هذا هو سر تخوفها من ثقافة الحضارات الأخرى و عدولها عن مشروع العولمة ، فالقوة الاقتصادية ليست كافية لبناء حضارة ، خصوصا مع وجود حضارات لها من القدرات الروحية و المادية ما يكفي للمنافسة .

التاريخ ذكرة الخوف الغربي :

أن اعتبار القومية تحمل طابعاً عنصرياً أو نازياً أو فاشياً ، يعتبر توصيفاً مبتسر مجاف للحقيقة . إلا أن الغرب يستخدم هذا التوصيف بسبب ما تحمله الذكرة الغربية من مآسي الحروب القومية داخل أوروبا . فهزيمة النازية والفاشية تمثل انتصار المدنية على القومية التي هي في نظر الغرب ضرب من ضروب التعصب . لكنا هذه القوميات لم تخفي حتى حين بلغ الغرب في أوروبا الاتحاد الأوروبي . هذه المخاوف المرتسمة في ذاكرة الوعي الغربي بما يحمله التاريخ الغربي من حروب منذ العصر الإغريقي كما يسردها المؤرخ (هوميروس) في الإلياذة و الأويسة و حرب المئة عام ... الخ من الحروب . بالإضافة إلى ذلك الحروب الخارجية منها على سبيل المثال ما قام به الرومان من احتلال لمحيطه العربي . كذلك حركة الاستعمار في نهاية ق19 م و بداية قرن 20 م . كل ذلك شكل حالة من الخوف من تفكك الغرب بسبب صراعات داخلية كالتي مر بها في الماضي من ناحية . من ناحية أخر الخوف من المحيط الجغرافي بأن يقوم بردِّ فعل اتجاه الغرب كونه قد مارس صور الاستعمار والاضطهاد عليه . و كأن حال الحضارات كما يصفه " توينبي " بأنه حالة من الصراع متأرجح بين فعل ورد فعل ، بل أن ردّ الفعل يكون فيه نوعاً من المغالاة، فالدول التي كانت تحت الاحتلال لا تكتفي باسترجاع أراضيها بل تتعدها إلى احتلال جزء من الدول الآخر ،فاحتلال الرومان للمنطقة العربية ترتب عنه قيام العرب باسترجاع أراضيهم واحتلال جزءً من أوروبا ثم أعاد الأوروبيين الكرة واحتلوا المنطقة العربية ومازال العرب تحت الضغط الغربي ببقاء فلسطين وسبتة ومليلة تحت الاحتلال و يتسأل " توينبي" عما إذا كان هناك رد عربي ؟ (راجع توينبي ج3 : 1960، 388 – 392) . الجدير بالذكر إن غاية المسلمين نشر الدين بوصفه رسالة إلهية ينبغي نشرها لكن الفهم الغربي عده احتلال . وهذا في حد ذاته يشكل نوع من التخوف الذي صنعه التاريخ و بصياغة الغربية انعكست الفعل الغربي لجعل هذا الخوف وسيلة تسهم في الحفاظ على وحدته . وإذا كان التعارض سمة من سمات الطبيعة مثلما ((عبرت اللغة المسيحية عن التعارض بين الشعورين بالعالم (الحنين إليه والرعب منه) بالجملة التالية :فلتخف الله ولتحبه)) (شبنغلر: 1964، 170) فالمدنية الغربية أوصلها الكبر إلى الاعتقاد تمتلك كل شيءً مادياً ووصلت ثقافتها الشيئية (المادية) إلى

حب الحياة والخوف الموت الذي ترسمه صورة الخشية من عودة الحروب الداخلية والخوف من الحضارات الأخرى . هذا الخوف هو ما أقام عليه " هنتنغتون" أثافي طرحه حول صراع الحضارات ـ حسب وصفه " موللر "المعارض له و المؤيد للعولمة ـ حيث يقول واصفاً ما اسماه بعالم " هنتنغتون " ((البشر خائفون فالحياة بضاعة هشة عرضة للعطب ، ومحفوفة بالمخاطر. هذا ينطبق بشكل أكبر على الرفاه والأمان ، الأمان الاجتماعي والاستقرار الثقافي والهوية ، أن الناس في حاجة للهوية فهم يردون أن يعرفوا من هم ولأية جهة ينتمون . والهوية تعني رسم الحدود ..... و في أزمان الانطلاق والأزمان والشدة يلتقي هذان الاحساسان الرئيسان معاً : الخوف و تغدو الحدود أكثر أهمية ، و يصبح البحث عن عدو أو كبش فداء حاجة أساسية ، و هذه الحاجة تتجه نحو الآخر . أن الأعداء يشكلون تهديداً مروعاً غير أن هناك أيضاً حنياً لا يقل ترويعاً إليهم وخصوصاً في الأوقات السيئة)) (موللر: 2005، 23) . و يرى أن هذه هي الثغرة التي يُقِيم عليها " هنتنغتون " رؤيته للحضارات ، و يرفض هذه الفكرة مُتبنيهاً نهج العولمة وتعايش الحضارات ، لكنه من خلال سيره في البحث عن أدلة تدحض رؤية " هنتنغتون " لتأكيد صحة رؤيته ، وقع في عدة تناقضات . فهو يتحدث عن العولمة والكونية الحضارية وتعاشيها ثقافياً من جهة ، ومن جهة أخرى يُظهِر نوعاً من المطمئنة للغرب بأنه الأقوى و ان الحضارات الأخر ضعيفة ومتصارعة . و أن الغرب مترابط و متفوق و بذلك يستطيع أن يُرسِ قِيمه كقيم عالمية (راجع موللر: 2005، 23) . فهو يريد بذلك أن يطمئن الغرب مما راء فيه حالة من الخوف ساقها " هنتنغتون " للعالم الغربي قبل العالم بأسره و هذا يُعد تناقضاً مجاف للموضوعية . ففي الوقت الذي يرفض فكرة الصراع يسعى إلى أن يفرض الغرب سطوته على العالم بنشر قيمة بناءً على قدراته الاقتصادية والعلمية وهيمنته على المؤسسات الدولية ، دون وعي أو تجاهل عن قصد ، أن لكل فعل ردَّ فعل مضاد وقد يكون أكثر قوة . هذا يعني أن نظرية الصراع وحالة الخوف لم تنتهي . بالإضافة إلى ذلك فهو بقد ما تحدث عن الغرب كوحدة واحدة ، إلا أنه في الوقت ذاته يقر بهشاشة مفهوم الغرب. فبعد استفاضة في إظهار قدرات الغرب ومثانة علاقته الداخلية . يعود ليقول ((و مع ذلك صحيحاً ما قيل حول الأزمة الداخلية للمجتمعات الغربية ، فنحن لا نمتلك أي صفة مقنعة لتحقيق الكافية والتكافل والشرعية في الوقت نفسه . و لكن السعي نحو ذلك سيكون أكثر سهولة أقام مجتمعاتنا انطلاقاً من تنوعها المقرر دستورياً ، لأن التنوع هو شرط الإبداع والإبداع المؤسسي هو فقط ما يعد بحلول المشكلات القرن الحادي والعشرين)) (موللر: 2005، 23). هذا القول يظهر عمق الأزمة الغربية في تحديد هويتها بشكل ثقافي موحد و يظهر الخشية حالة الصراع التي قد تؤدي إلى تفكك هذا الائتلاف المسمى بالغرب و يسعى إلى طمأنة الغرب بأن الغد أفضل بناءً على ما يتملكه الغرب من قوة دستورية ، و ليس قوة ثقافية حضارية واحدة ، فهو فضاء عسكري قائم على الرعب الداخلي حتى لا ينمو تعارض المصالح الذي يؤدي العودة إلى سالف العهد القريب من الحروب ، فمازالت عقلية العصور الوسطى المادية و الحربية الخالية من القيم الأخلاقية تضع غلافها السميك على الضمير الاخلاقي لديها، فكما يقول " بن نبي " ((لعل من الغريب أن نقول : إن الرجل المتحضر تزيد لديه هذه الاغلفة أو القشور. والإنجيل لم يدع شيئا غريباً حين وجه إلى الفرنسيين الذين طبعتهم على الحرمان ثقافتهم و خرافاتهم ، هذه الآية المشهورة التي قال فيها : طوبى لبسطاء العقول فإن لهم ملكوت السموات)) (بن نبي: 2001، 25) هذا من ناحية ، من ناحية أخرى، الرعب الخارجي لجعل العالم منشغل بالخوف من الغرب و بقضايا داخلية يفتعلها الغرب مع وجود بوادر ضعف في تلك المجتمعات. و كأن الغرب يُحاكي ماضية البائس المثخن بالحروب والتطرف . وتجسيده في العالم لجعله يعاني التخلف ليبقى في موضع القوة ، القول المنسوب إلى المسيح في إنجيل متى الآية (34) ((ما جئت لألقي سلاماً على الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً)). و كأن رسالة عيسى عليه السلام ليست رسالة سلام و محبة .

مما سابق يتضح أن الحرب و المدنية توأم سكن الحضارة الرومانية و لايزال مهيمناً على الفضاء الغربي . فإذا كان السياسي الفرنسي " تاليران – Talleyrand " (1754 – 1738) يرى ((أن السياسية غير مثمرة – لأنها مجافية للأخلاق - تقود حتماً إلى حرب مجافية للأخلاق ، و بالتالي غير مثمرة، وهذه تؤول مرة أخرى إلى السياسة ترى أن الخطأ أقبح من الجريمة)) (بن نبي: 2001، 21) فإن هذا الرأي تفسير و تأكيد لرأي معاصره الألماني " كلوزفتز – Clausevitz " الذي يرى أن الحرب و السياسية وسيلتان لا يمكن الفصل بينهما فما تعجز عن تحقيقه السياسة تحققه الحرب ، فالحرب وسيلة من وسائل السياسة (كلاوزفيتز: 1997، 96) . بيد أن السياسية أداة من أدوات التعبير عن رؤية الذات الحضارية للمجتمعات و قيمها الثقافية ، لذلك عجز الغرب عن اقناع المجتمعات الأخرى بمخرجات عصر النهضة - خصوصا بعد ظهور النزعة الاستعمارية الموافقة له - جعلت من حدود القدرة الحضارية للغرب مادية بامتياز ، و عاجزة عن تحقيق التوازن بين الجانبين الروحي و المادي لديها .

الخاتمة :

الحضارة بطبيعة تكوينها ثنائية التكوين تزاوج بين التكوين الروحي و المادي تلبية لحاجات الإنسان ، و بالتالي فهي تعبير رؤية المجتمعات تجاه الواقع الذي مرت به و ما تطمح إلى لتحقيقه إذا امتلكت القدرة على بلوغه ، و بتفاوت القدرة الإنسانية و اختلافها تتباين الهويات الحضارية مما يعني أننا أمام حضارات لا تقبل بذوبان هويتها في حضارة جامعة باسم الإنسانية أو العالمية . إن

العولمة والكونية التي طرحها الغرب ما هي الا إعادة صياغة لفكرة التقدم التي ظهرت في أوروبا في عصر النهضة بدعوى الإنسانية و يغلب عليها الطابع المادي الاقتصادي فكليهما طرح يهدف إلى السيطرة على بقي الحضارات .

الحضارة الغربية مفهوم مبتسر مجاف لطبيعة بنية الحضارة ، ذلك لأن الأسس التي تقوم عليها الحضارة تقضي وجود بنية ثقافية مشتركة تحقق الانتماء للحضارة . فالغرب بتعدد اللغات و الأعراق و الثرات الحضاري هو ائتلاف مصلحي يشكل فضاء توافقي بين الحضارات تربطها مصالح و مخاوف مشتركة، من جهة و جهة أخرى تحاشياً للعودة إلى حالة الحرب المدمرة التي مرت بها.

الحضارة الأوروبية حققت وجودها الذاتي ببلوغها الطابع الكلاسيكي و استفادت قدرتها الإبداعية الروحية و دخلت في طور الأزمة بركونها إلى المدنية . فهو فضاء حضاري افتراضي يحاول أن يحاكي صور الامبرطورية الرومانية التي بسطت سلطانها أوروبا و امتدت إلى محيطِها العربي ، و هذا يستدعي و جود قيصر يخضع الغرب لسلطانه ، و بما أن ذلك تجاوز حدود القدرة لدى المجتمعات الغربية لجاءت إلى الاستخدام المغلوط و المتداول لمصطلح الغرب (الحضارة الغربية) كتعريف لها .

إن ما أكسب الغرب صفة الحضارة الواحدة بالإضافة التفاهم المبدئ على المصالح امتلاك للقوة المادية الاقتصادية و العلمية و الحربية و تسخير المؤسسات الدولية للضغط على المجتمعات الأخرى و تسويق رؤيته المشتركة للمدنية على أنها عالمية .

الفضاء الغربي يعاني من الانفصام في الشخصية الحضارية نتيجة انعدام التوازن الحضاري بين الجانب الروحي و المادي ، فالصدمة التي تلقاها في العصور المظلمة خلفت لديه رد فعل مضاد لكل ما هو ديني و أخلاقي . و بمنهج برقمياتي نفعي مستند إلى مخرجات عصر النهضة ، أصبحت الغاية تبرر الوسيلة قاعد من قواعد الفضاء الغربي .

المراجع

المرجع و المصدر العربية

ابن خلدون - 1988 - مقدمة ابن خلدون – بيروت – دار إحياء الثرات

بو جنال ، محمد - 2010م - الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة - التنوير للطباعة والنشر - ص 14 - 15

تحرير- بوستي ، توفيق ، و زملائه - تأليف مجموعة باحثين - 2019– الاسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة – ط1 - برلين – المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية و السياسية و الاقتصادية.

صبحي ، أحمد محمود - 1989م - في فلسفة التاريخ – ط2 - بنغازي - جامعة بنغازي .

مؤنس ، حسين - 1978م - الحضارة : دراسة في أصول عوامل قيامها وتطورها - الكويت - عالم المعرفة

المرجع و المصدر المترجمة.

باترسون ، توماس سي - ترجمة - شوقي جلال-2001 - الحضارة الغربية الفكر و التاريخ - القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة.

.بن نبي ، مالك - ترجمة - عبدالصبور شاهين - 1986 - ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية) – ط 3 - دمشق - دار الفكر .

بن نبي ، مالك - ترجمة - عبد الصبور شاهين - 2001 - فكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ - دمشق - دار الفكر

بورجوه ، فليب - ترجمة - فوزية العشماوي - 2015 - منابع تاريخ الأديان - ط1 - القاهرة - المركز القومي للترجمة.

بيكون ، فرانسيس - ترجمة - عادل مصطفى -2017 - الاورجانون الجديد (إشارات صادقة في تفسير الطبيعة) القاهرة - مؤسسة هنداوي .

توينبي ، أرنولد – ترجمة فؤاد احمد شبل - 1960م - مختصر دراسة للتاريخ - ج1 ،ج 3 - ط 1 -القاهرة - جامعة الدول العربية .

شبنغلر ، أسوالد - ترجمة - أحمد الشيباني - 1964 - تدهور الحضارة الغربية - ج1 - بيروت - مكتبة الحياة

صدقي ، عبد الحميد - ترجمة - كاظم الجوادي - ب ت - تفسير التاريخ - الكويت - دار الكويت للطباعة والنشر .

فوكوياما ، فرانسيس - ترجمة - حسين أحمد أمين -1993م - نهاية التاريخ و ختام البشر - القاهرة - مركز الأهرام للترجمة والنشر .

فرم ،جورج - ترجمة – رلي دبيان - 2011 - تاريخ أوروبا و بناء أسطورة الغرب - ط1 - بيروت – دار الفارابي.

قرم ، جورج - 2007 - ترجمة - خليل أحمد خليل – 2007 - المسألة الدينية في ق21- بيروت - دار الفارابي.

كلاوزفيتز ، كارل - ترجمة - سليم شاكر الأمامي - 1997 - عن الحرب - ط1 - عمان - دار الفارس للنشر والتوزيع .

لاتوش ، سيرج - ترجمة - خليل كلفية – 1992 - تغريب العالم - القاهرة - دار العالم الثالث

موللر ، هارالد - 2005 - ترجمة - إبراهيم أبو هشهش - تعايش الثقافات ، مشروع مضاد لهنتنغتون - بيروت - دار الكتاب الجديد
هنتنغتون ، صامويل - 1999م - ترجمة - طلعت الشايب - صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) – ط2 - القاهرة - شركة سطور

المجلات :

الاخبار -11 -5– 1981 سلسلة الرهانات الأمريكية – بيروت - مجلة الاسبوع العربي – العدد 1126 .